المبحث الثاني
الدروس والعبر المستفادة من غزوة ذات الرقاع (غزوة نجد)
المطلب الأول
الدروس العقائدية

١ ـ جدية الدين الإسلامي وواقعيته:

يقول د/ أبو فارس: «لقد أكدت هذه الحملات العسكرية التي قادها الرسول ﷺ سمة من سمات هذا الدين هي سمة الجدية والواقعية، إن هذا الدين يأمر أتباعه بأن يواجهوا الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان والفكرة بالفكرة، ويحبذ الحوار الفكري بين أتباعه وبين معارضيه؛ لأنه المنتصر في النهاية؛ لأن البقاء للأصلح والأصوب، ولكن هذا الدين لا يقف عند هذا إذا قرر مناوؤوه أن يغلقوا آذانهم وعيونهم عن سماع الحق أو عدم السماح لغيرهم سماع صوت الحق، واستخدموا أسلوب القوة في ذلك، فإن هذا الدين يقرر أن يواجه القوة بالقوة، ويهب إلى أبعد من هذا فيواجه مجرد تفكير العدو باستخدام القوة إلى استخدام القوة قبله». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٢٧].

٢ ـ حفظ الله ورعايته لأوليائه ودعاته:

يقول د/ البوطي: «قصة المشرك الذي أخذ سيف النبي ﷺ وهو نائم تحت الشجرة....إلخ، قصة ثابتة وصحيحة كما رأيت، وهى تكشف عن مدى رعاية الباري ﷻ وحفظه لنبيه ﷺ، ثم هي تزيدك يقينًا بالخوارق التي أخضعها الله ﷻ له ﷺ مما يزيدك تبصرًا ويقينًا بشخصيته النبوية، فقد كان من السهل الطبيعي بالنسبة لذلك المشرك ـ وقد أخذ السيف ورفعه فوق النبي ﷺ وهو أعزل غارق في غفلة النوم ـ أن يهوي به عليه فيقتله، وإنك لتلمس ذلك من المشرك هذا الاعتداد بنفسه والزهو بالفرصة الذهبية التي أمكنته من رسول الله ﷺ في قوله: «**من يمنعك مني!؟**» فما الذي طرأ بعد ذلك حتى عاقه عن القتل؟... إن الذي طرأ هو ما لم يكن في حساب المشرك وتقديره، ألا وهو عناية الله وحفظه لنبيه ورسوله ﷺ، فقد كانت العناية الإلهية كافية لأن تملأ قلب المشرك بالرعب، وأن تقذف في ساعديه تيارًا من الرجفة، فيسقط من يده السيف، ثم يجلس متأدبًا مطرقًا بين يدي رسول الله ﷺ.

وأهم ما يجب أن تعلمه من هذه الحادثة أن هذا هو مصداق قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة]، فليست العصمة المقصودة في الآية أن لا يتعرض لأذى أو محنة من قومه، إذ تلك هي سنة الله في عباده كما قد علمت، وإنما المراد من العصمة أن لا تطول إليه أي يد تحاول اغتياله وقتله لتُغتال فيه الدعوة الإسلامية التي بُعث لتبليغها». [فقه السيرة للبوطي ٢١٢].

وفيها «حفظ الله تعالى نبيه من تآمر المشركين لما كان في مكة، وحفظه من غدر اليهود لما استقر في المدينة، في أحداث كثيرة، وواقعات جماعية وفردية، وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧]». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٦٣-١٦٤].

ويقول الصالحي: «قول غورث للنبي ﷺ: «مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟» على سبيل الاستفهام الإنكاري، أي لا يمنعك مني أحد؛ لأن الأعرابي كان قائمًا بالسيف على رأس رسول الله ﷺ، والسيف في يد الأعرابي، والنبي ﷺ جالس لا سيف معه.

ويؤخذ من مراجعة الأعرابي في الكلام أن الله ﷻ منع نبيه منه، وإلا فما الذي أحوجه إلى مراجعته وتكرارها ثلاث مرات كما عند البخاري في الجهاد، مع احتياج غورث إلى الحظوة عند قومه بقتله.

وفي قول النبي ﷺ في جوابه: «اللهُ يَمْنَعُنِي مِنْكَ» إشارة إلى ذلك؛ ولذلك أعاده الأعرابي فلم يزده على ذلك الجواب، غاية الثبات للنبي ﷺ وعدم مبالاته به أصلًا». [سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥/ ٢٨١].

ويقول د/ فيض الله: «دلَّت قصة غورث المشرك، الذي ندب نفسه لقتل رسول الله ﷺ وتطوع بذلك لقومه، على مَبْلَغِ ما كان يتمتع به النبي ﷺ من رعاية الله وعنايته وحفظه، وعلى ثقة النبي ﷺ بربه ﷻ في ذلك.

وإلا فما ظنك بالرسول ﷺ وقد نزل تحت شجرة سمرة، فعلق بها سيفه، ونام مع أصحابه نومة ـ كما قررت رواية البخاري، ولعله طال نومهم أو قَصُرَ، وإذا بغورث يخترط السيف، وَيَسْتَلُّه يهدد به النبي ﷺ وهو في مركز القوة والثِّقل، يقول: ألا تخافني؟ ما يمنعك مني؟ ويجيبه المصطفى ﷺ بكل اعتداد وثبات، وثقة بوعد الله: لا أخاف منك، يمنعني الله، فيهوي السيف من يد المشرك، بقدرة الكبير القدير، ويتهاوى المشرك، فيسلم السيف إلى صاحبه.

ليس لهذا التفسير، والقصة صحيحة في كتب السيرة، وفي صحيح البخاري، إلا العناية الإلهية، والإعجاز الإلهي، الذي يتخطى العادات والسنن، ويتجاوز قوى الناس، لنُصْرة نبيه ﷺ، والذودِ عن دعوته.

وقد قررت آي القرآن أن الله ضمن لنبيه حفظ حياته وسلامته من كل خطر يهدد حياته، ليستمر في الدعوة إلى الله بكل اطمئنان.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧].

وقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾[الطور: ٤٨].

أي امض لأمر الله ونهيه، وتبليغ رسالته، فإنا نَحوطك ونحفظُك، فلا يصل إليك مَنْ أرادك بسوءٍ من المشركين.

فليست قصةُ غورثٍ هذه التي روتها الصحاح، إلا مثالًا من أمثلة هذا الحفظ المُؤَكَّد المضمون، وصورة من صور تلك الحِيَاطَةِ المُلتَزَمَةِ، فضلًا من الله وتكرمًا». [صور وعبر لفيض الله ١٧٨-١٧٩].

ويقول الشيخ أبو زهرة: «إن ذلك بلا ريب فيه أمر خارق للعادة لأن السيف تنقبض عليه اليد في وقت إرادة الضرب ثم يسقط من يده على غير إرادة منه، وقد اعتزم الشر وبيته ودبره، فلما حانت ساعته، خانته يده، وقد كان ذلك من النبي ﷺ في أمور كثيرة، ولكن لم يجعلها دليل نبوته، ولم يتحد بها العرب، بل تحدى بالقرآن وحده؛ لأنه ما جاء بالخوارق الحسية، كعصا موسى وإبراء الأكمة والأبرص وغير ذلك من الحوادث التي تنقضي بمجرد وقوعها، بل كانت معجزته باقية؛ لأن رسالته باقية، لا تنقضي بزمانها وهي القرآن الباقي الخالد الذي يتحدى الناس في كل جيل وفي كل مكان: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[الإسراء]».

[خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٧٦٦-٧٦٧].

٣ ـ الثقة المطلقة بالله تعالى وقدرته:

يقول د/ الزيد: «فمع أن الأعرابي قد اخترط السيف بيده وهو نائم والرسول ﷺ ليس بيده سلاح ومع ذلك يقول للأعرابي: «الله يمنعني منك» فهو واثق من حفظ الله ورعايته له، فلم يتمكن الأعرابي أن يصنع شيئًا وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧]».

[تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٠ تح مقبل الوادعي].

ويقول ابن القيم رحمه الله: «والله سبحانه قد أمر رسوله ﷺ أن يبلغ ما أُنزل إليه، وضمن له حفظه وعصمته من الناس، وهؤلاء المبلِّغون عنه من أمته لهم من حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه وتبليغهم له، وقد أمر النبيُّ ﷺ بالتبليغ عنه ولو آية، ودعا لمن بلَّغ عنه ولو حديثًا».

[التفسير القيم لابن القيم ـ أ/ محمد أويس الندوي ص ٤٣٠]. [فقه السيرة للزيد ٥٦٨].

ويقول د/ أبو فارس: «تأمل معي قول الرسول ﷺ للأعرابي الذي أخذ سيف النبي ﷺ خلسة ورفعه مصلتًا ليقتل الرسول ﷺ حين سأله: من يمنعك مني الآن يا محمد؟ قال رسول الله ﷺ وهو مطمئن القلب مستقر النفس غير مرتبك ولا مضطرب: الله عز وجل، فسقط السيف من يده.

قلت في نفسي متسائلًا: لِمَ سقط السيف من يد هذا المشرك؟

فكان جواب العقل والقلب على التو: إنها كلمة: الله عز وجل، حين نطق بها رسول الله ﷺ، كانت كالصاعقة على قلب المشرك وعقله، قد زلزلت بنيانه، وهدمت أركانه، وأفقدته عقله وجنانه، والسيطرة على يده التي أمسكت حسامه، فما عادت هذه اليد تقوى على حمل السيف، فسقط السيف من يده.

ومما ينبغي الإشارة إليه هنا أن هذا ليس خاصًّا بالرسول ﷺ، بل حصل لأتباعه، ويحصل للمؤمنين المخلصين من الكرامات مثل هذا، فإن من عباد الله أناسًا لو أقسموا على الله لأبرهم.

نعم يمكن أن يقف الدعاة المخلصون هذه المواقف، وتحصل لهم مثل هذه الكرامات في أيامنا هذه، إن الله ﷻ إذا علم منهم إخلاصًا ومستوى إيمانيًّا معينًا فسيهيئ لهم من أسباب النصر على أعدائهم ومن أساليب إرهاب عدوهم ما لا يخطر على بالهم.

لقد كان المجاهدون على أرض فلسطين في القرن العشرين من أبناء أرض الكنانة، يصيحون في وجوه أعداء الله اليهود: الله أكبر، كانت هذه الكلمة التي تنطلق من قلوب أصحابها مارة بحناجرهم تهز اليهود من الأعماق، وتجعلهم يلقون سلاحهم ويولون مدبرين، لا يلوون على شيء؛ لأن هؤلاء المجاهدين باعوا أنفسهم لله، وجاؤوا من أجل نيل الشهادة على الأرض المباركة؛ لينالوا الفوز العظيم بجنات النعيم، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٤-٣٥].

ويقول د/ الحميدي: «في اتصاف النبي ﷺ بالتوكل على الله تعالى والاعتماد عليه في النصر على الأعداء، فحينما قال له غورث بن الحارث: من يمنعك مني؟ قال: الله، وهذا يعتبر درسًا للأمة في اللجوء إلى الله سبحانه واستمداد النصر منه وحده». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٥٨].

ويقول د/ زيد: «ولا شك أن الرجل وإن كان لم يسلم إلا أنه لم يستطع مواجهة النور المحمدي عندما أشهر سيفه وعبأ شجاعته، فقد كانت طلعة رسول الله ﷺ ببهائها وجلالها كفيلة بإيقاف تيار الشر عند كل من يحاول الاقتراب منه بسوء أو أذى، وكيف لا وقد نصره الله بالرعب يُقذف في صدور الأعداء مسيرة شهر». [عشرون محاولة لاغتيال الرسول ﷺ لزيد ٨٧].

٤ ـ لا إكراه في الدين:

يقول د/ أبو فارس: «أخذنا هذا من معاملة الرسول ﷺ للأعرابي الذي سقط السيف من يده، ومكنه الله من عنقه، لقد عرض الرسول ﷺ عليه الإسلام فأبى، فما هدده بالقتل إن لم يسلم ولم يكرهه على ذلك، بل عفا عنه بما يؤكد هذه الآية المحكمة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ [البقرة].

وما السنة إلا مؤكدة لما ورد في القرآن الكريم أو شارحة لها ومفسرة أو مضيفة إلى الأحكام أحكامًا لم ترد في القرآن الكريم». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٥-٣٦].

المطلب الثاني
الدروس التربوية والأخلاقية

١ ـ فقر الصحابة رضي الله عنهم:

«فلم يكونوا يجدون ما ينتعلون به حتى نقبت أقدامهم وسقطت أظفارهم وكانوا يلفون على أرجلهم الخرق ويجاهدون في سبل الله». [فقه السيرة للزيد ٥٦٨].

٢ ـ خلق التواضع والإخلاص:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان صحابة رسول الله ﷺ يحرصون على كتمان أعمالهم الصالحة رجاء قبولها، وإذا ما غفل أحدهم فذَكَر بعض أعماله وتضحياته ندم ندمًا شديدًا على ذكر ذلك خشية أن يكون قد ضيَّع حسناته.

تأمل معي هذا التواضع والإخلاص عند أبي موسى الأشعري رضي الله عنه حينما حدَّث عما حدث له في غزوة ذات الرقاع ندم على ذلك وكرهه.

قال ابن حجر في فتح الباري: وذلك أن كتمان العمل الصالح أفضل من إظهاره إلا لمصلحة راجحة كمن يكون ممن يُقتدى به» [فتح الباري ٨/ ٤٢٥]. [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٣-٣٤].

٣ ـ ينبغي تجريد الأعمال الصالحة لرب العالمين:

يقول د/ فيض الله: «صرحت الرواية التي ذكرناها عن أبي موسى رضي الله عنه، بأنه حدَّثَ بهذا الحديث، ثم كره ذلك، وقال راوي الحديث عنه: كأنه كره أن يكون شيئًا من عمله أفشاه.

فيبدو أن أبا موسى رضي الله عنه حَدَّثَ بهذا الحديث، في مناسبةٍ ما، ردًّا على سؤال، أو كشفًا لخفاء، وأنه راجَع نفسه في ذلك، فبدا له أنه تعجَّل بعض الشيء في التعريف بسبب هذه التسمية، إذ ترتب عليه إظهار ما كان ينبغي الإسرار به، من الأعمال الصالحة، خشيةَ الرياء، أو أن يتسرب إليها نزغ الهوى، وحظ النفس، فيحبطها؛ ولهذا ندم على تعجله في توضيحه، إشفاقًا على ذلك الجهاد المُحتَسَب عند الله، أن يبطل مثوبته.

وجاء في رواية ابن هشام، أن أبا موسى رضي الله عنه أعلن أسفه لهذا التصريح، وقال: ما كنت أصنع بأن أذكره؟ فقد خرج الأمر من يده، ولم ينل من مقابله شيئًا، بل ربما نقص من ثوابه المذخور، أو أحبطه.

أرأيت إلى مبلَغ حِيَاطَة سلف هذه الأمة، أعمالهم الصالحة، وصونها من مداخل الشيطان، والهوى المهلك؟

وكذلك ينبغي احتساب الأعمال الصالحة، عند رب العالمين، وتجريدها من كل باعث لغيره فيها؛ لتكون جديرة بالرفع والتقبل وادخار الأجر، وتنميته عنده.

ولا يفسد العمل، مثل الرياء به، وإشهاره على الملأ، وشراء الثناء عليه، ومَحْمَدَةِ الناس من أجله.

ومن ثَمَّ دعا القرآن إلى الإخلاص في كثير من آياته، وذم المرائين: قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البيِّنة: ٥]، وقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ [الكهف].

قال أهل العلم: إنها نزلت فيمن يطلب الأجر والحمد بعباداته وأعماله.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ يقول الله ﷻ: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»، وفي رواية: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ، فَمَنْ عَمِلَ لِي عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ**».

[مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٢)، وأحمد عن أبي هريرة ﷺ (٩٣٣٦)].

ولهذا كان السلف الصالح من هذه الأمة يحترسون من الشهرة وحب الظهور بالأعمال، فربما تركوا العمل خوفًا من الشهرة أن تُتْلِفَه عليهم.

قال الحسن ﷺ: لقد صَحِبْتُ أقوامًا، إن كان أحدُهم لتُعْرَض له الحكمة، لو نطق بها لنفعته، ونفعت أصحابه، وما يمنعه منها إلا مخافة الشهرة، إن كان أحدهم ليمر فيرى الأذى في الطريق، فما يمنعه أن يُنَحِّيه إلا مخافة الشهرة.

إن تجريد الأعمال الصالحة من كل حظوظ النفس والهوى والمصلحة، هو خلاصة الدين، ومُحَصِّل العبودية لله رب العالمين.

لذلك جَمَّلَ السلفُ أعمالهم، وصانوها، وخافوا عليها من أنفسهم؛ فلهذا كره أبو موسى ﷺ التحدث بسبب تسمية هذه الغزوة، وقال: ما كنت أصنع بأن أذكره؟

فانظر يا أخي المسلم، كيف كان سلفك الصالح يحترس من الرياء ومن الظهور بعمله الصالح، وكيف ترى اليوم من المسلمين من يرائي إذا عمل، ويحب الظهور بما يعمل وبما لا يعمل؟

اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول، ونعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من أن نُعْجَبَ بما نفعل، وأن نُفسد أعمالنا بالرياء، وحب الثناء». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٧٦-١٦٨].

ويقول د/ الزيد: «من كراهية أبي موسى الأشعري ﷺ للحديث عما حصل له في غزوة ذات الرقاع من المشقة يقول النووي ﷺ قَوْله: (وَكَرِهَ أَنْ يَكُون شَيْئًا مِنْ عَمَله أَفْشَاهُ) فِيهِ اِسْتِحْبَابُ إِخْفَاءِ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَمَا يُكَابِدُهُ العَبْدُ مِنَ المَشَاقِّ فِي طَاعَةِ الله تَعَالَى، وَلَا يُظْهِرُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ إِلَّا لِمَصْلَحَةٍ مِثْلِ بَيَانِ حُكْمِ ذَلِكَ الشَّيْءِ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَى الِاقْتِدَاءِ بِهِ فِيهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ مَا وُجِدَ لِلسَّلَفِ مِنْ الإِخْبَارِ بِذَلِكَ». [شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/ ١٩٧-١٩٨].

فعلى المسلم أن يحرص على بقاء الأعمال الصالحة بينه وبين ربه، فهو أخلص وأعظم للأجر وأبعد عن الحبوط، والشيطان يحرص على منع المسلم من عمل الصالحات، فإذا انتصر عليه وعمل العمل الصالح سعى الشيطان في إبطال هذا العمل وإنقاص أجره وذلك بالحديث عن هذا العمل».

[فقه السيرة للزيد ٥٦٩-٥٧٠].

٤ ـ القائد القدوة والاتصال الروحي بالله ﷻ:

في قصة غورث يقول عميد/ فرج: «وهذه الحادثة تلقي الضوء على اتصال الرسول ﷺ الروحي بربه ﷻ وإيمانه العميق به وإدراكه حماية الله له على الدوام، ولاشك في أنه ﷺ يقدم لأصحابه المثل الحي للإيمان الصادق، ويكون بذلك أسوة لهم، فيأخذون عنه ويعملون مثله، فالجند دائمًا يتطلعون إلى قادتهم ويتمثلون بهم، هذا فوق أن هذه الرؤيا الواضحة لإيمان القائد تعزز الثقة بينه وبين جنده، والقوة الحقيقية تكمن دائمًا في الثقة المتبادلة بين القادة والجنود، هذه الثقة التي ترفع من معنويات الجند وتصبح دعامة تؤكد النصر وتدعمه». [العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٢٦٨].

٥ ـ أهمية خلق الشجاعة للقائد:

«لقد ظهر اتصاف النبي ﷺ بالشجاعة الفذة ورباطة الجأش، حيث كان ثابت القلب هادئ النفس والسيف في يد عدوه مصلتًا وهو مجرد من السلاح». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٥٨].

٦ ـ العفو عند المقدرة:

يقول د/ أبو فارس: «لقد سقط السيف من يد الأعرابي المشرك، وتناول رسول الله ﷺ السيف وقال له: **من يمنعك مني الآن؟** قال الأعرابي: لا أحد، لقد كان في مكنة الرسول ﷺ أن يفصل رأس هذا المشرك عن جسده، ولكنه لم يفعل، بل عفا عنه، وهذا هو الخلق الممدوح عند الناس، وهذا الخلق من الرسول ﷺ هو الذي حمل المشرك على مدح الرسول ﷺ حين أتى قومه قائلًا: **جئتكم من عند خير الناس**، والتزم ألا يقاتل رسول الله ﷺ في معركة قط، فالتزم الحياد، وفي هذا كسب للمسلمين على المستوى الإعلامي وعلى المستوى العسكري إذ حيَّدوا عدوًّا شرسًا يصر على قتالهم».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٥].

ويقول د/ الحميدي: «في اتصاف النبي ﷺ بالعفو عند المقدرة، فقد عفا عن ذلك الأعرابي وهو مستحق العقوبة، والعفو عند المقدرة خصلة عظيمة لا يقدر عليها إلا الكاملون من الرجال.

ولا شك أن لهذا الخلق الكريم أثرًا بالغًا في الدعوة إلى الإسلام، فقد جاء في بعض روايات هذا الخبر أن ذلك الأعرابي أسلم، وأنه رجع إلى قومه فاهتدى به خلق كثير». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٥٩].

ويقول الشيخ أبو خوات: «وفي هذه الغزوة وقعت قصة دعثور ذلك الرجل مر على النبي ﷺ وهو نائم تحت سمرة، فأخرج سيف النبي ﷺ من جرابه ثم أيقظه فقال له: يا محمد! من يمنعك مني فقال له: الله، فوقع السيف من يد الرجل، وأخذه الرسول ﷺ وعفا عنه وقد كان يريد قتله.

ولعل في هذا العفو درسًا يجب أن يلقنه الطغاة من الناس ليعلموا أن لذة العفو إنما تكون عند المقدرة». [دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ٨١].

٧ ـ انحدار أخلاق العدو:

يقول الشيخ أبو زهرة: «ويتضح من قصة غورث ما انحدر إليه بعض المشركين من أخلاق تتنافى مع مراعاة الجوار، والمروءة وفيها إرادة الغدر والقتل من غير مواجهة، وكيف استباحوا ذلك بالنسبة للنبي ﷺ كفرًا وفسوقًا وعنادًا. [خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٧٦٦-٧٦٧].

٨ ـ التعلق بالقرآن الكريم وحب تلاوته:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان تعلق هذا الصحابي بالقرآن الكريم تعلقًا شديدًا، وحبه لتلاوته حبًّا أنساه آلام السهام التي كانت تنغرس في جسمه، وتثج الدم ثجًّا.

لقد كان يود من كل قلبه أن تبقى هذه النشوة واللذة والمتعة بتلاوة القرآن الكريم، ولو أدى ذلك إلى تمزيق جسمه وتفتيت كبده، وتمزيق أحشائه، ومن ثم أن تصعد روحه إلى بارئها، لكن الذي منعه من هذا حرصه على ألا يفرط بثغر أمره رسول الله ﷺ بحفظه، تأمل معي قوله لما قال له أخوه: «أفلا أهبتني أول ما رماك؟» كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها، فلما تابع عليَّ ركعت فآذنتك، وأيم الله لولا أن أضيع ثغرًا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣١].

٩ ـ درس للشباب المسلم:

في موقف عباد بن بشر ﷺ ما: «يعطي درسًا للشباب المسلم في الإيمان والرجولة والثبات على العقيدة والتمسك بالنظام، وتكشف للقارئ عن سر قيام الدولة الإسلامية وانتشار العقيدة الإسلامية على أيدي أولئك الرجال من صحابة محمد ﷺ بتلك السرعة التي أذهلت الدنيا».

[غزوة الأحزاب لباشميل ٧٠-٧١].

١٠ ـ رعاية القيادة لأفراد الجماعة:

يقول د/ الغضبان: «ها هو جابر بن عبد الله بن حرام ﷺ اليوم يمضي مع رسول الله ﷺ في هذه الغزوة الثانية وهو سعيد أن يكون جنديًّا بين هؤلاء المئات، وكان وهو في فورة شبابه يحرص ما استطاع أن يقترب من رسول الله ﷺ عَلَّه يفوز منه بنظرة، أو كلمة عابرة تسعده، وكأنما قد ملك الوجود كله.

ومن هو حتى يهتم به رسول الله ﷺ بين السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وكل الرصيد

الذي يملكه أنه ابن الشهيد عبد الله بن عمرو بن حرام سيد قومه ونقيبهم».

[التربية القيادية للغضبان ٣/ ٣٠٦].

يقول أ/ فتح الباب: «ومن المواقف الخالدة التي صدرت عن أعظم القيم الروحية في تلك الغزوة أنه في أثناء انصراف المسلمين منها أبطأ جمل جابر بن عبد الله ﷺ فنخسه النبي ﷺ فانطلق متقدمًا بين يدي الركاب، ثم قال له: أتبيعه؟ فابتاعه منه، وقال: لك ظهره إلى المدينة، فلما وصل إلى المدينة أعطاه الثمن ووهب له الجمل فلم يأخذه منه، وليس أجمل من ذلك ولا أوقع أثرًا في نفس الجندي إذ يرعاه قائده ويؤثره على نفسه ولو كان به خصاصة، ضاربًا بذلك المثل الأعلى للقادة في رعاية أفراد الجماعة وتأليف قلوبهم؛ كي يبذلوا بلا مَنٍّ، ويضحوا عن رضى ومحبة، وإيمان عميق بالقائد والرسالة معًا».

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١٢٢].

ويقول د/ الزيد: «في قصة جمل جابر ﷺ نأخذ متابعة الرسول ﷺ لأحوال أصحابه ورفقه بهم ومؤانسته لهم، والحديث معهم وتفقده لشؤونهم، وقد ورد أنه إذا كان مع أصحابه سار في آخرهم، لكي يتمكن من معرفة أحوالهم وإعانة ضعيفهم وهذا من تواضعه ﷺ». [فقه السيرة للزيد ٥٧٠].

ويقول د/ البوطي: «إنما ذكرنا قصة جابر بن عبد الله ﷺ وما كان بينه و بين الرسول ﷺ من المحادثة في طريق عودتها إلى المدينة، مع أنها لا تتعلق بشيء من أمر الغزوة لما فيها من الصورة الكاملة الدقيقة لخلق رسول الله ﷺ مع أصحابه، وما انطوى عليه خلقه الكريم هذا من لطف المعاشرة ورقة في الحديث وفكاهة في المحاورة ومحبة شديدة لأصحابه.

فأنت إذا تأملت جيدًا في هذه القصة التي سردناها، علمت أن النبي ﷺ كان متأثرًا بالمحنة التي طافت على بيت جابر بن عبد الله ﷺ، فقد استشهد والده في غزوة أحد، فقام هو ـ وهو أكبر أولاد أبيه ـ على شأن الأسرة ورعاية الأطفال الكثيرين الذين خَلَّفهم له والده من ورائه، وهو على ذلك رقيق الحال ليس له نصيب وافر من الدنيا.

وكأنما استشعر الرسول ﷺ في تأخر جابر ﷺ عن القوم بسبب جمله الضعيف الذي لا يملك غيره، مَظهرًا لحالته العامة هذه... (وقد كان من عادته ﷺ إذا سار مع أصحابه في طريق، أن يتفقد أصحابه كلهم ويطمئن عليهم بين كل فترة وأخرى)، فانتهزها فرصة وتخلف حتى التقى معه وراح يواسيه بأسلوبه الرقيق الفكه الذي رأيت، في طريق ليس معهما فيه ثالث.

عرض عليه ﷺ شراء بعيره، وهو إنما يريد أن يجعل ذلك ذريعة ومناسبة لإكرامه ومساعدته على وضعه الذي هو فيه، ثم سأله عن زوجته والبيت، في أسلوب فكه رقيق، وراح يُطَمْئن الزوج الجديد، أنهم إذا وصلوا قريبًا من المدينة أقاموا ساعات هناك، حتى يتسامع أهل المدينة بمقدمهم، فتسمع زوجته

فتصلح من شأنها وتهيء له البيت بزينته ونمارقه، وينساق معه جابر في الأسلوب نفسه فيقول: والله يا رسول الله ما لنا من نمارق!... فيجيبه ﷺ قائلًا: إنها ستكون.

صورة رائعة عن لطف معشره، وأنس حديثه، والفكاهة الحلوة في محاورته لأصحابه، لم يكتب لنا أن نراها ونسعد بها في مجالسه ﷺ وغزواته وأسفاره، ولكن ها نحن نستشفها من سيرته وأخباره العطرة، فيهزنا الشوق إلى رؤيته التي حُرمناها، ومجالسه التي سمعنا بها ولم نرها، وغزواته التي قرأناها ولم يكن لنا شرف الاشتراك فيها، اللهم عوضنا عن ذلك كله بلقاء معه في جنان خلدك، وهيئنا لذلك بتوفيق من لدنك للتمسك بهديه واقتفاء أثره في تحمل كل محنة وضيم في سبيل دينك وتحقيق شريعتك».

[فقه السيرة للبوطي ٢١٢ – ٢١٣].

ويقول الشيخ أبو زهرة: «هكذا كانت مراعاة القائد لجنده، يتتبع الضعيف فيقويه، والمتخلف فلا يتركه حتى يسير معه ببركة الله، وما سقنا الخبر لذلك فقط، بل سقناه لهذا؛ ولأنها بركة بأمر خارق للعادة.

وإن حديث الجمل لا ينتهي بذلك، بل إن النبي ﷺ يبتاع الجمل، فيريد أن يهبه له جابر، فيأبى إلا الشراء، ثم يساومه، طلبه النبي ﷺ بدرهم فأبى، فزاده إلى درهمين فأبى، فما زال يزيده حتى جعل ثمنه، أوقية من ذهب، ولكنه يهبه للرسول، بعد أن ساوم هذه المساومة.

وإذا كان قد تعرف حال صاحبه وهو في السفر، فلابد أن يؤنسه ويعينه، ويتعرف حاله، فسأله رسول الله ﷺ قائلًا: يا جابر، هل تزوجت. قال: نعم يا رسول الله، قال ﷺ: أثيبًا أم بكرًا. قال: لا بل ثيبًا. قال ﷺ: أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك، قال جابر: يا رسول الله، إن أبي أصيب يوم أحد، وترك بنات له سبعًا، فنكحت امرأة جامعة، تجمع رؤوسهن وتقوم عليهن، قال له الرسول ﷺ العطوف الألوف: أصبت إن شاء الله.

ولكن الرسول ﷺ لا يكتفي بذلك الود الراحم، بل إنه يقيم الوليمة لزواج صاحبه، فإذا وصل إلى مكان يبعد عن المدينة بنحو ثلاثة أميال اسمه صرار، نحر جزورًا، يأكل هو وأهله، كان ذلك والجمل لا يزال في يد جابر.

فرأى إزاء تلك المحبة والمودة أن يرسل الجمل إلى رسول الله ﷺ، وقد وهبه له، فرده النبي ﷺ إليه، وأرسل معه ثمنه، وهو الأوقية من الذهب التي ارتضاها ثمنًا له.

ولننقل كلام رسول الله ﷺ لنرطب به أسماعنا، ونملأ به قلوبنا: «**يا ابن أخي خذ برأس جملك فهو لك**»، ودعا بلالًا فقال له: «**اذهب بجابر، وأعطه أوقيه ذهب**».

ذكرنا هذه القصة لنعرف مودة رسول الله ﷺ، ورأفته بهم، وملاحظته إدخال السرور على نفوسهم، وإذهاب العنت عنهم؛ لتكون منهم قوة في الأرض، فليست القوة بالفظاظة والتحكم، إنما القوة بالمحبة والتراحم والتودد». [خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٧٦٨-٧٦٩].

ويقول الشيخ القرني: «انظر إلى أخلاق النبي ﷺ مع أصحابه، فهو في غاية من الرقة والرحمة والتواضع، فمن عادته أنه كان يتأخر في القفول عن أصحابه حتى يتفقدهم، وقد عرف ما بجابر ﷺ وَرَقَّ له، وأكرم الله جابرًا ﷺ برسول الله ﷺ حيث كان سببًا في نهوض جمله الضعيف وتقدمه بعد أن كان متأخرًا.

ثم أخذ ﷺ يداعب جابرًا ﷺ ويحادثه، وكانت مساومته له على جمله طريقًا غير مباشر لمساعدة جابر ﷺ بعد أن أدرك حالته وضيق ذات يده.

إن القصة تخبر عن لطف معشر النبي ﷺ وحسن معاملته لأصحابه الذين بادلوه حبًّا بحب ووفاء بوفاء، وآثروه على أنفسهم، وافتدوه وقت الشدة بأرواحهم، وصدق الله العظيم إذ يقول له: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهكذا يجب أن يكون القادة في معاملتهم لرعاياهم، ولا يغض من شأن الشريف أن يكون لين الجانب يأنس إليه أصحابه، ويجدون في صدره الرحب ملاذًا لهم وأمنًا، فهو يدنو منهم ويداعبهم في مزاج لطيف ويهش لهم ويضحك معهم.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أُمِّ سُلَيْمٍ، وَلَهَا ابْنٌ مِنْ أَبِي طَلْحَةَ يُكْنَى أَبَا عُمَيْرٍ، وَكَانَ يُمَازِحُهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَرَآهُ حَزِينًا، فَقَالَ: «**مَا لِي أَرَى أَبَا عُمَيْرٍ حَزِينًا؟**»، فَقَالُوا: مَاتَ نُغَرُهُ الَّذِي كَانَ يَلعَبُ بِهِ، قَالَ: فَجَعَلَ يَقُولُ: «**أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ**».

[مسند أحمد ٢٧/ ٣٣١ رقم ١٣٢٩٨، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

ويعلق العقاد ﷺ على هذه القصة قائلًا: وهذه قصة صغيرة تفيض بالعطف والمروءة من حيثما نظرت إليها، فالسيد يزور خادمه في بيته، ويسأل أمه عن حزن أخيه ويواسيه في موت طائر ولا يزال يرحم ذكراه كلما رآه، ومثل هذا عطفه على الضعف البشرى في رجل مثل عبد الله الحمار الذي لقب بهذا اللقب لما اشتهر به من السكر والدعابة، فكان النبي ﷺ يحده في الخمر ولا يتمالك أن يضحك منه».

[هدي السيرة للقرني ١٦٢-١٦٣].

١١ ـ ينبغي للقائد أن يكون حُلوَ العشيرة، لطيفَ الحديث، جَمَّ التواضع لجنوده:

يقول د/ فيض الله: «دلَّ على هذا حواره الهادف مع جابر ﷺ، في القصة الجانبية، التي رواها البخاري ومسلم وغيرهما من أهل السيرة، منصرفه من هذه الغزوة، والتي تمثل خلق الرسول الكريم ﷺ خير تمثيل، وتصور حسن عشرته لأصحابه ﷺ في أجلى صور اللطف والرقة، والتواضع الرفيع الرحيم:

أ ـ أرأيت كيف أدرك جابرًا ﷺ، وقد تخلف عن القوم؛ لضعف جَمَلِه، فأهمه أمره، واتخذ له جريدة، فَنَخَسَه بها نَخَسَات لعلها كانت خفيفة، فكانت للجمل قوة غالب بها الجمال، وواهقها فسبقها... معجزة للنبي ﷺ.

ب ـ ثم عرض على جابر ﷺ أن يبتاع جمله هذا، فأراد أن يَهبَه إياه، فأبى وساومه مساومة، كانت سَمْحَة بارَّة، لا كما يساوم الناس في بياعاتهم، وما كان من قصد النبي ﷺ المتاجرة بالجمل، والمرابحة فيه، وإنما اتخذه وسيلة لبر جابر ﷺ، فإنه لما انقلب إلى صرار، رد على جابر ﷺ جمله، ونقده ثمنه، وزاده شيئًا يسيرًا ـ كما قالت الرواية ـ.

إنه أسلوب فريد في بر الأصحاب، والتلطف بعشرتهم، ما يفعله إلا الرسل ومَنْ تأسى بهم.

ج ـ وليس ذلك فحسب، بل إنه ﷺ تَعَرَّفَ على أخبار جابر ﷺ الأُسَرِيَّة، بعد أن استشهد والده في أحد، فعضه الدهر بنابه، وأصبح هو المسؤول عن الأسرة وحده، وعلم من خلال سؤاله عن أحواله وزواجه، أنه تزوج أخيرًا امرأة ثَيِّبًا، فأعلمه أنه كان يود الزواج من بِكْرٍ غَضَّةِ الإهاب، تداعبه ويداعبها، وتخفف من قسوة المحنة التي يعاني منها، لكنه استصوب رأيه، لما أجابه بأنه آثر الثيب؛ لتقوم على البنات السبع، اللاتي مات عنهن أبوه، وتَلُمَّ شَعْثَهُنَّ، وتَرُمَّ رثاثهن.

د ـ وأحب الرسول الكريم ﷺ، ذو الخلق العظيم، أن يُكرم الصحابي المجاهد معه في غزوة ذات الرقاع؛ لقرب عهده بالزواج، عندما يقترب من المدينة، فيكون منها على بعد أميال، فيأمر فتُنحر الجزور، ويقيم عليها يومه، وتسمع زوجه العروس بمقدمه، فتُصلح من شأنها، وتتعهد بيتها، وتنفض وسائدها، تأهبًا للقاء زوجها.

ولما عقَّب جابر ﷺ، بأنه ليس في بيته وسائد، أخبر الصادق المصدوق مُبَشِّرًا بأنه ستصلح حاله، وسيغتني بفضل الله، وستكون له وسائد وغيرها من وسائل النعيم.

أيُّ لطفٍ هذا، وأية مواساة هذه، وأية طمأنة وإحسان صُحبَة، في أوبةٍ من غزوة، بلا تكلف ولا تهيُّأ ولا استعداد سابق: أبرأ جمله وقوَّاه له، بلمسة خارقة، ومعجزة ظاهرة، ثم وهبه إياه بعد أن نقده ثمنه؛ ثم احتفى به فأمر فنحر القوم الجزور لتستعد عروسه لاستقباله، ثم طمأنه عن نعيم منظور، وغنىً مذخور في جيب الأيام.

تلك من نماذج الأخلاق النبوية، التي تحلى بها رسول الله ﷺ والتي حلاه بها ربه ﷻ، الذي بعثه ليتمم به مكارم الأخلاق.

وبهذا الأسلوب الهادئ الوادع، الرفيق الرقيق، يعلم الربانيون، حسن الصحبة، وصدق الأخوة، وبر الخلة والأخلاء.

اللهم كما متعتنا بالاستماع إلى هذا الهدي النبوي الرفيع، وفقنا للمتعة باتباعه والتأسي به فيه، وإبرازه خلقًا ومنهاجًا، ونورًا للإنسانية الهابطة المعذبة في ماديتها المسرفة، وأنانيتها المؤسفة».

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٧٩-١٨١].

١٢ ـ الحِكْمَةُ مِنْ مُسَاوَمَةِ النَّبِيِّ ﷺ لِجَابِرٍ ﷺ:

قال السهيلي: «وَمِنْ لَطِيفِ العِلمِ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ ﷺ بَعْدَ أَنْ تَعْلَمَ قَطْعًا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَفْعَلُ شَيْئًا عَبَثًا، بَل كَانَتْ أَفْعَالُهُ مَقْرُونَةً بِالحِكْمَةِ، وَمُؤَيَّدَةً بِالعِصْمَةِ، فَاشْتِرَاؤُهُ ﷺ الجَمَلَ مِنْ جَابِرٍ ﷺ، ثُمَّ أَعْطَاهُ الثَّمَنَ، وَزَادَهُ عَلَيْهِ زِيَادَةً، ثُمَّ رَدَّ الجَمَلَ عَلَيْهِ، وَقَدْ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يُعْطِيَهُ ذَلِكَ العَطَاءَ دُونَ مُسَاوَمَةٍ فِي الجَمَلِ، وَلَا اشْتِرَاءٍ، وَلَا شَرْطٍ، وَلَا تَوْصِيلٍ.

فَالحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ بَدِيعَةٌ جِدًّا، فَلْتُنْظَرْ بِعَيْنِ الِاعْتِبَارِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ سَأَلَهُ: هَل تَزَوَّجْتَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: هَلَّا بِكْرًا، فَذَكَرَ لَهُ مَقْتَلَ أَبِيهِ، وَمَا خَلَّفَ مِنْ البَنَاتِ، وَقَدْ كَانَ ﷺ قَدْ أَخْبَرَ جَابِرًا ﷺ بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحْيَا أَبَاهُ، وَرَدَّ عَلَيْهِ رُوحَهُ، وَقَالَ: «مَا تَشْتَهِي فَأَزِيدُكَ؟»، فَأَكَّدَ ﷺ هَذَا الخَبَرَ بِمِثْلِ مَا يُشْبِهُهُ، فَاشْتَرَى مِنْهُ الجَمَلَ، وَهُوَ مَطِيَّتُهُ، كَمَا اشْتَرَى اللهُ تَعَالَى مِنْ أَبِيهِ وَمِنْ الشُّهَدَاءِ أَنْفُسَهُمْ بِثَمَنِ هُوَ الجَنَّةُ، [وقد قال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾[التوبة].

وَنَفْسُ الإِنْسَانِ مَطِيَّتُهُ ـ كَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ ﷺ: إِنْ نَفْسِي مَطِيَّتِي، ثُمَّ زَادَهُمْ زِيَادَةً فَقَالَ: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [يونس]، ثُمَّ [جَمَعَ لَهُمْ بَيْنَ العِوَضِ وَالمُعَوَّضِ] وَرَدَّ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ الَّتِي اشْتَرَى مِنْهُمْ فَقَالَ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾[آل عمران]، فَأَشَارَ ﷺ بِاشْتِرَائِهِ الجَمَلَ مِنْ جَابِرٍ ﷺ وَإِعْطَائِهِ الثَّمَنَ، وَزِيَادَتِهِ عَلَى الثَّمَنِ، ثُمَّ رَدِّ الجَمَلِ المُشْتَرَى عَلَيْهِ، أَشَارَ بِذَلِكَ كُلِّهِ إِلَى تَأْكِيدِ الخَبَرِ الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ عَنْ فِعْلِ اللهِ تَعَالَى بِأَبِيهِ، فَتَشَاكَلَ الفِعْلُ مَعَ الخَبَرِ، كَمَا تَرَاهُ، وَحَاشَ لِأَفْعَالِهِ أَنْ تَخْلُوَ مِنْ حِكْمَةٍ، بَل هِيَ كُلُّهَا نَاظِرَةٌ إِلَى القُرْآنِ، وَمُنْتَزَعَةٌ مِنْهُ ﷺ.

[الروض الأنف للسهيلي ٦/ ٢٤٨-٢٤٩ تح الشيخ الوكيل، وما بين المعكوفتين زيادة لابن كثير].

قال ابن كثير: «وَهَذَا الَّذِي سَلَكَهُ السُّهَيْلِيُّ هَا هُنَا إِشَارَةٌ غَرِيبَةٌ وَتَخَيُّلٌ بَدِيعٌ، وَاللهُ ﷻ أَعْلَمُ».

[البداية والنهاية لابن كثير ٥/ ٥٧٢].

١٣ـ الذوق الإسلامي في التعامل الأسري:

يقول الشيخ الصوياني: «قال ﷺ: **«إِنَّا لَوْ قَدِمْنَا صِرَارًا أَمَرْنَا بِجَزُورٍ فَنُحِرَتْ، وَأَقَمْنَا عَلَيْهَا يَوْمَنَا ذَلِكَ، وَسَمِعَتْ بِنَا فَنَفَّضَتْ تَمَارِقَهَا»**، قَالَ: قُلْتُ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا لَنَا نَمَارِقُ، قَالَ: **«أَمَا إِنَّهَا سَتَكُونُ، فَإِذَا قَدِمْتَ فَاعْمَلْ عَمَلًا كَيِّسًا»** [المغازي للواقدي١/ ٣٩٩-٤٠٢]، **«فَالكَيْسَ الكَيْسَ»** [البخاري في البيوع (٢٠٩٧)، وفي النكاح (٥٢٤٥)]، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولَ اللهِ ﷺ صِرَارًا أَمَرَ بِبَقَرَةٍ، فَذُبِحَتْ فَأَكَلُوا مِنْهَا [البخاري في الجهاد والسير (٣٠٨٩)، ومسلم في المساقاة (٧١٥)]، فَأَقَمْنَا عَلَيْهَا ذَلِكَ اليَوْمَ [مسند أحمد ٢٣/ ٢٧٢ رقم ١٥٠٢٦]، فَلَمَّا ذَهَبْنَا لِنَدْخُلَ، قَالَ: **«أَمْهِلُوا حَتَّى تَدْخُلُوا لَيْلًا ـ أَيْ عِشَاءً ـ لِكَيْ تَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ** (غير المتزينة وهي منتشرة الشعر مغبرة الرأس)، **وَتَسْتَحِدَّ** (تستعمل الحديدة في إزالة شعر الإبط والعانة ونحو ذلك) **المُغِيبَةُ** (المرأة التي غاب عنها زوجها)». [البخاري في النكاح (٥٠٧٩)، ومسلم في الإمارة (٧١٥)]، فَلَمَّا أَمْسَى رَسُولُ اللهِ ﷺ دَخَلَ وَدَخَلنَا، قَالَ: فَأَخْبَرَتْ [فَحَدَّثْتُ] المَرْأَةَ الحَدِيثَ، وَمَا قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَتْ: **فَدُونَكَ، فَسَمْعًا وَطَاعَةً** [مسند أحمد ٢٣/ ٢٧٢ رقم ١٥٠٢٦].

تأثرت تلك المرأة الصالحة بذوق رسول الله ﷺ الرفيع، وأسلوبه الرائع في منح الأنوثة توهجها وعطرها الذي لا يقاوم، حتى ينهار ذلك الحبيب القادم أمام هذا السحر الحلال، ويستسلم ذلك المحارب مهزومًا بالحب الطاهر، وهو الذي لا يستسلم إذا هاجت الحرب والحراب.

ولم يكن ﷺ وحده في رقي الذوق والأسلوب، زوجاته ـ رضي الله عنهن ـ كن كذلك، كن نسيجًا من الرقة والإحساس، ذات يوم «دَخَلَتْ امْرَأَةُ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ ـ أَحْسِبُ اسْمَهَا خَوْلَةَ بِنْتَ حَكِيمٍ ـ عَلَى عَائِشَةَ ﵂ وَهِيَ بَاذَّةُ الْهَيْئَةِ، فَسَأَلْتُهَا: مَا شَأْنُكِ؟ فَقَالَتْ: زَوْجِي يَقُومُ اللَّيْلَ، وَيَصُومُ النَّهَارَ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَذَكَرَتْ عَائِشَةُ ﵂ ذَلِكَ لَهُ، فَلَقِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عُثْمَانَ ﵁ فَقَالَ: **«يَا عُثْمَانُ، إِنَّ الرَّهْبَانِيَّةَ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْنَا، أَفَمَا لَكَ فِيَّ أُسْوَةٌ، فَوَاللهِ إِنِّي أَخْشَاكُمْ لله، وَأَحْفَظُكُمْ لِحُدُودِهِ»**.

[مسند أحمد ٤٣/ ٧٠-٧١ رقم ٢٥٨٩٣، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين].

وفي رواية: «دَخَلَتِ امْرَأَةُ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ ﵁ عَلَى نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فَرَأَيْنَهَا سَيِّئَةَ الْهَيْئَةِ، فَقُلْنَ: **مَا لَكِ؟ مَا فِي قُرَيْشٍ رَجُلٌ أَغْنَى مِنْ بَعْلِكِ**، قَالَتْ: **مَا لَنَا مِنْهُ شَيْءٌ، أَمَّا نَهَارُهُ فَصَائِمٌ، وَأَمَّا لَيْلُهُ فَقَائِمٌ**، قَالَ: فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَذَكَرْنَ ذَلِكَ لَهُ، فَلَقِيَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فقَالَ: **«يَا عُثْمَانُ أَمَا لَكَ فِي أُسْوَةٍ؟»**، قَالَ: **وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ الله، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي**، قَالَ: **«أَمَّا أَنْتَ فَتَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ** [قَالَ: **إِنِّي لأَفعَلُ**، قالَ: **«لاَ تَفعَل، إِنَّ لِعَينَيكَ عَلَيكَ حَقًّا،] وَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، صَلِّ وَنَمْ، وَصُمْ وَأَفْطِرْ»**، قَالَ: فَأَتَتْهُمُ المَرْأَةُ بَعْدَ ذَلِكَ عَطِرَةً كَأَنَّهَا عَرُوسٌ، فَقُلْنَ لَهَا: **مَهْ**، قَالَتْ: **أَصَابَنَا مَا أَصَابَ النَّاسَ**. [صحيح ابن حبان ٢/ ١٩ رقم ٣١٦، وقال الشيخ الأرناؤوط: حسن لغيره، والطبقات الكبير ٣/ ٣٦٦ رقم ٤٢٨٣].

من ودٍّ ووصال، في أجواء يمطر الإسلام فيها حبًّا وقلوبًا، فما بين المرأة والرجل أكثر من الجسد، إنها أشياء حميمة تجعل للدنيا مذاقًا أجمل، المرأة بالنسبة للرجل ـ إذا تحضَّر بالإسلام ـ عبق لا ينقطع، ربيع في كل الفصول، مطر صيفي، هل هناك أرق من قوله ﷺ لحادي العيس ذي الصوت الجميل: «**رُوَيْدَكَ بِالْقَوَارِيرِ**». [البخاري في الأدب (٦١٦١)].

هل هناك أبهى من قوله ﷺ: «**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ**».

[النسائي في عشرة النساء (٣٩٣٩)، وقال الشيخ الألباني: حسن صحيح].

إن عثمان بن مظعون ﷺ أراد أن ينقطع للعبادة صيامًا وقيامًا، حتى لقد باح للنبي ﷺ بنيته أن يجري عملية تنقطع بها صلته بالمرأة تمامًا، لكن النبي ﷺ نهاه، وقال له: «**إِنَّ الرَّهْبَانِيَّةَ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْنَا**».

إذًا فلا رهبانية في الإسلام، فالرهبانية هناك عند النصارى، وخلف حصون بني النضير وقريظة وغيرهم من يهود، تعالوا ـ قبل أن ننتهي من قصة جابر ﷺ وجمله ـ نزور حصون اليهود لنرى مدى علاقتهم بالمرأة في تلك الأيام، تعالوا نزور: **زريبة للنساء**، هذا هو أقل وصف أصف به أماكن تواجد المرأة اليهودية، أما المرأة نفسها عند أولئك القوم فهي أقل رتبة من الحيوان، أقل رتبة من الخنازير القذرة.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ [أَخْرَجُوهَا مِنَ الْبَيْتِ، و] لَمْ يُؤَاكِلُوهَا، [وَلَمْ يُشَارِبُوهَا،] وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ (أي لم يخالطوهن ولم يساكنوهن في بيت واحد)، فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ النَّبِيَّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾**﴾ [البقرة]، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**[جَامِعُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ] اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ**» فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودَ، فَقَالُوا: مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلَّا خَالَفَنَا فِيهِ، فَجَاءَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ فَقَالَا يَا رَسُولَ الله، إِنَّ الْيَهُودَ تَقُولُ: كَذَا وَكَذَا، فَلَا نُجَامِعُهُنَّ؟ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى ظَنَنَّا أَنْ قَدْ وَجَدَ (أي غضب) عَلَيْهِمَا، فَخَرَجَا فَاسْتَقْبَلَهُمَا هَدِيَّةٌ مِنْ لَبَنٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَرْسَلَ فِي آثَارِهِمَا فَسَقَاهُمَا، فَعَرَفَا أَنْ لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِمَا.

[مسلم في الحيض (١٦ (٣٠٢)، وأبو داود في الطهارة (٢٥٨)، ومسند أحمد ٢١/ ١٩٨ رقم ١٣٥٧٦].

ها هو ﷺ مع زوجته أم سلمة ﵂ نائمان فأصابها الدم، فهل طردها ﷺ من بيته أو من فراشه؟

لن أجيب، أم سلمة ﵂ ستجيب، تقول ﵂: بَيْنَا أَنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مُضْطَجِعَةً فِي خَمِيصَةٍ (كساء أسود مربع له علمان في طرفيه من صوف وغيره) إِذْ حِضْتُ، فَانْسَلَلْتُ فَأَخَذْتُ ثِيَابَ حِيضَتِي، قَالَ: «**أَنُفِسْتِ؟** (أي هل حضت)»، قُلْتُ: **نَعَمْ**، فَدَعَانِي فَاضْطَجَعْتُ مَعَهُ فِي الْخَمِيلَةِ (القطيفة البيضاء من الصوف). [البخاري في الحيض (٢٩٨)].

أما عائشة ﵂ فتروي لنا أشياء تغيض اليهود حتى الموت، فتقول ﵂: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَرَأْسُهُ فِي حَجْرِي، وَأَنَا حَائِضٌ. [البخاري في التوحيد (٧٥٤٩)].

وتقول عائشة ﵂: «أَنَّهَا كَانَتْ تُرَجِّلُ، تَعْنِي رَأْسَ رَسُولِ الله ﷺ، وَهِيَ حَائِضٌ، وَرَسُولُ الله ﷺ حِينَئِذٍ مُجَاوِرٌ فِي المَسْجِدِ (معتكف فيه)، يُدْنِي لَهَا رَأْسَهُ (يقرب لها رأسه وهي في حجرتها)، وَهِيَ فِي حُجْرَتِهَا، فَتُرَجِّلُهُ، وَهِيَ حَائِضٌ». [البخاري في الحيض (٢٩٦)].

أي تسرِّح شعره، وناداها ذات يوم لتعطيه السجادة ليصلّي عليها وهو في المسجد وهي حائض، تقول ﵂: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «**نَاوِلِينِي الخُمْرَةَ** (هي السجادة يسجد عليها المصلي وسميت خمرة لأنها تخمر الوجه أي تغطيه) **مِنَ المَسْجِدِ**»، قَالَتْ: فَقُلْتُ: إِنِّي حَائِضٌ، فَقَالَ: «**إِنَّ حَيْضَتَكِ لَيْسَتْ فِي يَدِكِ**». [مسلم في الطهارة (٢٩٨)، وأبو داود في الطهارة (٢٦١، والترمذي في الطهارة (١٣٤)، والنسائي في الطهارة (٢٧١)].

إذًا فالطمث أذى يتخلص منه جسم المرأة كما يتخلص جسمها وجسم الرجل من البول وغيره.

قد يقول قائل: إن اليهود كانوا يعتقدون ذلك ومعهم النصارى، لكنهم اليوم يدعون إلى تحرير المرأة، وإلى إعطائها حقوقها كاملة.

فأقول: لننسَ لدقائق كلام أنس بن مالك ﵁ السابق، ولننسَ ما كان يفعله اليهود والنصارى في السابق، ولنقل إنهم يمثلون أنفسهم فقط ولا يمثلون الدين اليهودي والنصراني، لننس ذلك ولنتوجه إلى يهود اليوم ونصارى اليوم، الذين أزعجونا وأزعجوا نساءنا حول تحرير المرأة، والمناداة بحقوقها، ماذا يقول دينهم الآن، ماذا يقول كتابهم المقدس اليوم وبعد ألفي عام من المراجعة والتمحيص والدراسة، ربما نجد سر هذا الضجيج.

أمامي الآن كتابهم المقدس وهو يتحدث عن المرأة، فيقول: **(وإذا كان بامرأة سيلان دم من جسدها كعادة النساء: فسبعة أيام تكون في طمثها، وكل من لمسها يكون نجسًا إلى المغيب، وجميع ما ترقد عليه أو تجلس عليه يكون نجسًا، وكل من لمس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بالماء ويكون نجسًا إلى المغيب، ومن لمس شيئًا مما تجلس عليه يغسل ثيابه ويستحم بالماء، ويكون نجسًا إلى المغيب.**

إن كان فراشها أو ما هي جالسة عليه شيء: فمن لمسه يكون نجسًا إلى المغيب.

إن ضاجعها رجل فأصابه شيء من دم الحيض ـ فكم تتوقعون مدة نجاسته؟ إلى المغيب؟ لا، الكتاب المقدس يقول: يكون نجسًا سبعة أيام، وكل فراش يستلقي عليه يكون نجسًا).

[الكتاب المقدس -اللاويين- شريعة ما يفرزه الجسد- ١٤].

إن معنى هذا الهراء أن الرجل يحيض أيضًا.

أين هذا الهراء من قول عائشة ﵂: «كُنْتُ أَنَا وَرَسُولُ الله ﷺ نَبِيتُ فِي الشِّعَارِ الْوَاحِدِ (أي الثوب الذي يلاصق الجسم مباشرة)، وَأَنَا حَائِضٌ طَامِثٌ، فَإِنْ أَصَابَهُ مِنِّي شَيْءٌ غَسَلَ مَكَانَهُ، وَلَمْ يَعْدُهُ (أي يغسل مكان الدم فقط ولا يغسل ما حوله)، ثُمَّ صَلَّى فِيهِ، وَإِنْ أَصَابَ ـ تَعْنِي: ثَوْبَهُ ـ مِنْهُ شَيْءٌ غَسَلَ مَكَانَهُ وَلَمْ يَعْدُهُ، ثُمَّ صَلَّى فِيهِ.

[أبو داود في الطهارة (٢٦٩)، وفي النكاح (٢١٦٦)، والنسائي في الطهارة (٢٨٤)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

بل إن رسول الله ﷺ يصر على أن تأكل عائشة ﵂ وتشرب قبله وهي حائض، بل يقسم عليها، ثم يقوم بحركة تتوهج منها الرقة والحب، حركة تدخل السرور إلى قلبها ونفسها، لقد جاء رجل فسأل عائشة ﵂: هَلْ تَأْكُلُ الْمَرْأَةُ مَعَ زَوْجِهَا وَهِيَ طَامِثٌ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَدْعُونِي فَآكُلُ مَعَهُ وَأَنَا عَارِكٌ، وَكَانَ يَأْخُذُ الْعَرْقَ (عظم في لحم)، فَيُقْسِمُ عَلَيَّ فِيهِ، فَأَعْتَرِقُ مِنْهُ (آكل منه)، ثُمَّ أَضَعُهُ فَيَأْخُذُهُ، فَيَعْتَرِقُ مِنْهُ، وَيَضَعُ فَمَهُ حَيْثُ وَضَعْتُ فَمِي مِنَ الْعَرْقِ، وَيَدْعُو بِالشَّرَابِ فَيُقْسِمُ عَلَيَّ فِيهِ قَبْلَ أَنْ يَشْرَبَ مِنْهُ، فَآخُذُهُ فَأَشْرَبُ مِنْهُ، ثُمَّ أَضَعُهُ فَيَأْخُذُهُ فَيَشْرَبُ مِنْهُ، وَيَضَعُ فَمَهُ حَيْثُ وَضَعْتُ فَمِي مِنَ الْقَدَحِ». **[النسائي في الطهارة (٢٧٩) وفي الحيض والاستحاضة (٣٧٧)، وقال الشيخ الألباني: صحيح الإسناد].**

أين هذا من دين اليهود والنصارى الذي يعاملون المرأة كمخلوق من الدرجة العاشرة، مخلوق نجس، أنجس من النجاسة نفسها، كل شيء تلمسه يتنجس، كل شيء يلمسها يتنجس، كل من لمس شيئًا لمسته ينجس، أي أن المرأة لا يمكن أن تبقى في المنزل وإلا أصبح المنزل نجسًا ملوثًا تجوبه الآثام والشياطين، لا بد من وضع النساء اليهوديات والنصرانيات في زرائب خاصة نجسة، حتى ينقطع دم الحيض عنهن.

لا، حتى لو انقطع الطمث فانقطاعه لا يكفي للخروج من الزريبة؛ لأن كتابهم المقدس يقول: **(وإذا طهرت من سيلانها فلتنتظر سبعة أيام ثم تطهر)**. **[الكتاب المقدس -سفر اللاويين- شريعة ما يفرزه الجسد].**

هل يكفي هذا أيها الكتاب المقدس؟ لا، فالحيض ليس نجاسة فقط، بل هو ذنب ترتكبه المرأة ولا بد من تكفيره، كيف؟ يقول كتابهم المقدس: **(وفي اليوم الثامن تأخذ لها يمامتين أو فرخي حمام، وتجيء بهما إلى الكاهن** (العالم المسؤول عن دار العبادة) **فيذبح واحدة ويحرق الأخرى ويكفِّر عنها الكاهن بعد ذلك أمام الرب سيلان نجاستها)**. **[المصدر السابق].**

ترى كم بقي للمرأة من أيام حياتها تعامل فيها كإنسان، يبدو من كلامهم السابق أن المرأة قذفت من كوكب مليء بالشياطين والنفايات». **[السيرة النبوية للصوياني ٢/ ٣١٨-٣٢٤، وينظر درس «النهي عن طرق النساء ليلاً» في الدروس الفقهية المستفادة من غزوة بني المصطلق].**

المطلب الثالث

الدروس الفقهية

١ ـ مشروعية صلاة الخوف [(١)]:

يقول الشيخ أبو زهرة: «كانت الأهبة للحرب من جانبهم عنيفة شديدة، وإن كان الله تعالى قد ألقى في قلوبهم الرعب، وكان على المؤمنين أن يحذروهم، ولقد كان المشركون يتفاهمون فيما بينهم على أن يَنْقَضُّوا على المسلمين إذا حان وقت صلاتهم، وهم يعلمون، وجرى على ألسنتهم أن الصلاة أحب إليهم من كل شيء، فكانوا يطمعون أن يصيبوا منهم غِرَّة وقت صلاتهم، ولكن الله تعالى قد علَّم جنده الحذر، فقال عز من قائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ ﴾[النساء: ٧١].

ولذلك شرعت صلاة الخوف لمثل هذه الحال، ونزلت آية شرعيتها في هذه الغزوة، فقال تعالت كلماته: ﴿ وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٠٤﴾ ﴾[النساء].

ويظهر أن الآيات الكريمات قد نزلت في وقت ذلك اللقاء بين المؤمنين والمشركين الذي كان فيه الحذر من الجانبين، وهذه الآيات تدل على أحكام شرعية:

أولها: قصر الصلاة الرباعية لأجل السفر أو الخوف ودل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾.

وثانيها: أنها ثبتت صلاة الخوف بها، وظاهرها الذي تدل عليه أنه يصلي ركعتين، وليُحْرِم الجميع بالصلاة معه، ولكن تجيء طائفة منهم النبي ﷺ بأسلحتها، ولتُصَلِّ معهم ركعة، والطائفة الأخرى تحرس المصلين مع تسلح المصلين أنفسهم، فإذا أتم الركعة مع هذه الطائفة، تأتي الطائفة الأخرى، مع أسلحتها، ولتأخذ حذرها، ويصلي ﷺ الركعة الثانية مع الطائفة الأخرى، ويسلم ﷺ عند كمال صلاته.

---

(١) فصَّل الدكتور وهبة الزحيلي آراء العلماء في صلاة الخوف وأحكامها وكيفيتها في كتابه القيم «الفقه الإسلامي وأدلته» ٢/ ٤٣١-٤٤٤ ط دار الفكر ـ دمشق ـ الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

ومن بعد ذلك تصلي كل طائفة الركعة الباقية لها مع بقاء الأخرى حارسة، فالطائفة التي ابتدأت الصلاة مع النبي ﷺ تكون ركعتها لاحقة لأنها الثانية، والطائفة الأخرى التي جاءت الأولى تصلي مسبوقة؛ لأن ما فاتها هو الركعة الأولى.

ونلاحظ في صلاة الخوف:

أولًا: أنها ركعتان، وروي أنها كانت الأربع في حال الخوف من غير سفر، وأن النبي ﷺ ـ وكذلك كل إمام ـ يقسِّم المصلين فرقتين إحداهما تحرس، وقد أحرمتْ للصلاة ويصلي بالأخرى ـ وأن ذلك يقتضي الحراسة الدائمة، مع عدم الانقطاع عن الصلاة.

وثانيًا: أن الصلاة تكون بإمامة القائد، أو من يقوم مقامه ليكون الجمع بين الصلاة والإمامة أي تكون الصلاة جماعة.

وثالثًا: أن ينتفع الجميع بفضل الجماعة فإن فضل الجماعة ينالها اللاحق، وهو الذي يقطع الصلاة بعد الدخول فيها، ثم يتمها، والمسبوق وهو يتأخر دخوله فيها، ثم يعيد ما سبق به، وله فضل الجماعة.

وقد روى ابن هشام عدة روايات في صلاة النبي ﷺ في الخوف وقد تعددت هذه الصلاة في مواطن كثيرة، ولبُّها واحد.

فقد روى عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما فِي صَلَاةِ الخَوْفِ قَالَ: «صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ بِطَائِفَةٍ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ، وَطَائِفَةٌ مُقْبِلُونَ عَلَى العَدُوِّ، قَالَ: فَجَاؤوا فَصَلَّى بِهِمْ رَكْعَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ».

[السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢٠٤].

والآية تنطبق على هذه الرواية ولا تخرج عما قلنا، بيد أن الرواية تدل على أن النبي ﷺ صلى بهم أربعًا، وكلٌّ صلى ما فاته، وروي عن جابر رضي الله عنه أيضًا قال: صلى بنا رسول الله ﷺ، فركع بنا جميعًا، ثم سجد رسول الله ﷺ وسجد معه الصف الأول فلما رفعوا سجد الذين يلونهم بأنفسهم، ثم تأخر الصف الأول، وتقدم الصف الثاني حتى قاموا مقامهم، ثم ركع النبي ﷺ بهم جميعًا، ثم سجد النبي ﷺ وسجد الذين يلونه معه، فلما رفعوا رؤوسهم سجد الآخرين بأنفسهم فركع النبي ﷺ بهم جميعًا، وسجد كل واحد منهم بأنفسهم سجدتين.

وإننا نرى في عبارة هذه الرواية اضطرابًا، ولا نرى أن الآية تنطبق عليها، والأولى أحق بالأخذ، وعليها الفقهاء الأربعة.

وتدل الآيات السابقة على أن الصلاة لا تسقط في سفر أو حضر، ولا أمن ولا خوف.

وأنها في الخوف والسفر قد تقصر، أو تكون بالإيماء، ولكن لا تسقط؛ لأنها ذِكر الله، ويجب أن يكون العبد قائمًا به في كل حال، ولو على الجنوب.

وأنه إذا كان الأمن والاطمئنان يجب أن تُقام الصلاة كاملة مقومة على وجهها بركوعها وسجودها، والائتمام الكامل والجماعة الكاملة كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء]، أي معينًا في مواقيته، لا يجوز التخلف عنها في أي حال، ولا عذر في تركها؛ لأنها مخاطبة العبد لربه، وذلك هو الدين القيم». [خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٧٦٣-٧٦٥].

ويقول د/ البوطي: «الطريقة التي صلى بها رسول الله ﷺ جماعة مع أصحابه في هذه الغزوة هي الأساس الذي قامت عليه مشروعية صلاة الخوف.

ولصلاة الخوف كيفيتان: إحداهما خاصة بأن يكون العدو في جهة القبلة.

والثانية خاصة إذا كان العدو في غير جهتها.

والكيفية الثانية هي التي صلى بها الرسول ﷺ في غزوة ذات الرقاع، فقد حان وقت الصلاة، وأشتات العدو من حولهم في أكثر من جهة القبلة وحدها، ويخشى أنهم يراقبون المسلمين من بعد، حتى إذا رأوهم أدبروا عنهم جميعًا وانشغلوا بصلاتهم غدروا بهم وانحطوا فيهم بسيوفهم.

فبدأ رسول الله ﷺ الصلاة مع فرقة من أصحابه، وإخوانهم يراقبون العدو في جهاته المختلفة، حتى إذا أتم الرسول ﷺ من صلاته نصفها، أي ركعة واحدة، فارقه مَنْ كانوا يصلون خلفه وأسرعوا فأتموا الركعة الثانية وحدهم، والرسول ﷺ واقف في صدر ركعته الثانية، ثم ذهبوا ليرابطوا مكان إخوانهم، حيث جاء هؤلاء فاقتدوا برسول الله ﷺ فصلى بهم الركعة الثانية التي بقيت من صلاته، ثم قاموا فأتموا وحدهم الركعة الثانية لهم والنبي ﷺ ينتظرهم جالسًا، ثم سلموا عليه. [صحيح مسلم ٦/ ٤٨].

والذي اقتضى هذه الكيفية من الصلاة مع إمكان أدائهم الصلاة بجماعتين، سببان اثنان:

الأول: قصد اجتماعهم كلهم على الاقتداء برسول الله ﷺ، وتلك فضيلة لا يُصار إلى غيرها عند إمكان تحقيقها.

الثاني: استحباب وحدة الجماعة قدر الإمكان، فتجزئة القوم أنفسهم إلى عدة جماعات تتوالى لأداء فريضة من الفرائض مكروه بدون ضرورة.

ولم يلاحظ السادة الحنفية إلا السبب الأول لها؛ ولذلك ذهبوا إلى أنه لا مسوغ لبقاء مشروعيتها بعد وفاة النبي ﷺ. [فقه السيرة للبوطي ٢١١-٢١٢].

ويقول د/ العيساوي: «وقد اتفق العلماء على مشروعيتها لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ سَجَدُواْ ...﴾ الآية [النساء: ١٠٢].

وبصدد الخوف من العدو هناك نوعان من الصلاة تؤدى الفريضة على نحوهما:

(١) صلاة تسمي (صلاة الخوف) وهي تؤدى جماعة وعلى أشكال متعددة معينة، جاء تفصيلها في كتب الحديث والفقه، وليس فيها ضربٌ ولا قتال، وهي التي تحدثت عنها الآية السابقة من سورة النساء، وهذا النوع من صلاة الخوف أقره الجمهور بمن فيهم الأحناف.

[ينظر: بدائع الصنائع ١/ ٢٤٢، والمجموع للنووي ٤/ ٤٠٥].

وقد أورد العلماء ضيع عديدة في كيفية أدائها، ذكر منها ابن العربي ثماني صفات في كتابه أحكام القرآن. [أحكام القرآن ١/ ٦١٨].

(٢) صلاة تسمي (صلاة شدة الخوف) وهذه الصلاة يسقط فيها من الأركان، ويقع فيها من المشي والضرب والطعان ما يستلزمه قتال العدو، أو الخوف منه، وعلى هذه الصلاة فسر الجمهور قوله تعالى في سورة البقرة [٢٣٩]: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾. [فقه الغزوات للعيساوي ٢٧٥، وينظر في تفصيل ذلك: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية لمحمد خير هيكل ٢/ ١٣٦٥-١٣٨].

٢ ـ عناية الإسلام بالصلاة:

يقول د/ الغضبان: «وكانت صلاة الخوف فقهًا عظيمًا لكل جندي في الجيش ـ والمسلم عمومًا ـ على أهمية الصلاة، فحتى في قلب المعركة لا يمكن التساهل فيها، ولا يمكن التنازل عنها ـ مهما كانت الظروف ـ، وكانت فقهًا عظيمًا كذلك قضية صلاة الجماعة وأهميتها، فيصلي كل فريق ركعة مع رسول الله ﷺ وركعة وحده، فينال شرف الاقتداء بالمصطفى ﷺ وينال الفريق الأول شرف افتتاح الصلاة مع رسول الله ﷺ في التكبير، وينال الفريق الثاني شرف اختتام الصلاة معه ﷺ في التسليم، وبذلك تندمج الصلاة والعبادة بالجهاد والدم في لحظة واحدة، ويتكون الجيل الرباني الذي لا ينسى ربه في أي لحظة من لحظات حياته، بل يكون أكثر ما يكون ذكرًا لله وهو يشتجر في رماحه مع العدو، وهذا الجيل هو الذي قال الله تعالى له عقب بدر: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الأنفال].

وهو الذي قال له عقب أحد وعقب محنة الرجيع ومعونة: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ [النساء: ١٠١-١٠٢].

هذا الجيل الذي تربى من معين النبوة يقوم على صياغة رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم أشرف كتب الله اختارها لخلقه، فلم نجد لحظة واحدة أي انفصال أو انفصام بين العبادة والجهاد، لنرى الجيل النكد في حياتنا المعاصرة والذي يرى العبادة والصلاة والذكر خاصة بالدراويش وأهل الله كما يزعمون وكذبوا في ذلك». [التربية القيادية للغضبان ٣/ ٣٠٣-٣٠٤].

ويقول الشيخ أبو خوات: «ولنقف هنا بعض الوقت لنتساءل: أهذا الحد يعنى النبي ﷺ بالصلاة؟ وإذا كانت الصلاة حين الخوف من وثوب العدو واجبة الأداء على هذه الصورة وبالوضع المستطاع الذي يشعر بأي وجه بمراقبة الله ورجاء رحمته وخوف عذابه، وبخاصة في المواقف التي لا بديل فيها عن طلب النصر، والنصر إنما يكون من الله: فما موقف المسلمين منها في وقت الدعة والأمن والهدوء؟

إنني أنظر من هذه الزاوية فآخذ العبرة وأتعلم الدروس، إن المسلمين أصبحوا في بعض المواقف يخشون أو يستحيون أن يقوموا للصلاة، أصبحت الصلاة في نظر بعضهم شيئًا لا ينبغي إعلانه ولا الحرص على فعله، مع إنها في حقيقة أمرها سهلة الأداء، مدعاة للطهارة والنظافة، وسيلة لذكر الله والقرب منه ومراقبته في كل عمل يقوم به المصلي بين الصلاتين مكفرة للذنوب التي لا يخلو منها هذه العصور إنسان، ولو نظرنا إلى فرضية الصلاة وعرفنا أنها وجبت ليلة الإسراء في أرفع مكان، وفلسفنا هذا المعنى إلى أنها الهدية التي رجع بها النبي ﷺ إلى المسلمين فكأن الله ـ وقد قرب محمدًا بجسده وروحه إلى أقدس مكان ـ أوجب الصلاة على أمته لتكون بديلًا عن الإسراء بها حيث يتم بواسطتها اللقاء الإلهي في اليوم خمس مرات.

وإنك تسأل من تخالطهم من الذين لا يبدو عليهم أداء الصلاة، فيقولون لك: إننا نصلي في البيت ويؤكدون لك أنهم لا ينامون حتى يؤدوا ما عليهم من صلاة، وتتعمق معهم فتجدهم بين حاج لبيت الله أكثر من مرة، وبين ناشئ في بيت رجل عالم، بل وبين متعلم في أحضان معاهد الدين، ونسي هؤلاء جميعًا قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾ [النساء]، وقوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨﴾ [الإسراء]، وقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾ [هود].

فماذا يضير هؤلاء جميعًا إذا خرجوا من بيوتهم متوضئين حراصًا على وضوئهم، حتى إذا أذن للظهر أدوا صلاته في دقائق على أي مكان طاهر في مجالات عملهم، ثم إذا عادوا إلى منازلهم واستراحوا قاموا للعصر وصلوه، وبوضوئه يصلون المغرب وقد يدركون العشاء، وبذلك يكونوا قدوة لمرؤوسيهم، ويكون لهم أجرهم وأجر من اقتدى بهم، فإن كثيرين من متوسطي الموظفين وصغارهم يخشون أو يستحيون أن يصلوا في حضرة رؤسائهم، فإذا صلى هؤلاء انحلت عقدة الخوف وخفت درجة الحياء مما لا حياء فيه، وقد يكون هؤلاء متوضئين ولا يصلون.

وقد حدث ذات مساء أن كنت أنا وبعض العلماء في نادي طلبة الجامعة نسمع محاضرة عن فلسطين، وبدأت المحاضرة قبيل المغرب واستمرت وكانت المعلومات القيمة التي نستمع إليها لا تسمح بأن نتركها

ونخرج للصلاة، ولكن فريضة المغرب تقف أمامنا وتُسائلنا عن ضياعها، وهنا طلبنا أنا وإخواني العلماء وَقْفَ المحاضرة لنؤدي الصلاة لأننا في حرج: لا نرضى أن نترك المحاضرة ولا أن نترك الصلاة، فأُوقفت المحاضرة خمس عشرة دقيقة، وليست هنا العبرة، ولكن العبرة أنني خرجت على النجيل أصلي بصف واحد من الناس، فما إن انتهيت من الصلاة والتفت ورائي حتى وجدت حوالي أربعين فردًا بينهم ست نساء اختمرن وصلين في آخر الصفوف...

وإذن كان هؤلاء كلهم متوضئين، وكانوا يخشون أو يستحيون، ولو أن الذين على رأس الحفل قاموا للصلاة لانحلت العقدة وخف الحياء.

ومن هذه الواقعة أرجو أن تُراعى أوقات الصلاة في مواعيد عقد الندوات والمحاضرات والاحتفالات، حتى يرتفع الحرج عن الحاضرين والحاضرات، وحتى يكون هذا تقليدًا تراعيه كل الجهات، وقد نفذ هذا فعلًا في جمعية الشبان المسلمين في ندوة الخميس الدينية التي تعقد كل خميس بين صلاتي المغرب والعشاء، واتبع ذلك في سائر الندوات والمحاضرات».

[دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ٧٨-٨١].

ويقول د/ الزيد: «يتضح من صلاة الخوف في هذه الغزوة أهمية الصلاة وأنها لا تسقط بحال من الأحوال لا في السفر ولا في الحضر ولا في الأمن ولا في الخوف وذلك لعظم مكانتها وأهميتها في الإسلام». [فقه السيرة للزيد ٥٦٧].

٣ ـ أهمية صلاة الجماعة:

يقول د/ الزيد: «فمع شدة الخوف وملاقاة الأعداء يقيم المسلمون الصلاة جماعة مما يدلنا على أهمية الصلاة جماعة في المسجد الذي بُني لأجل إقامة الصلاة فيه». [فقه السيرة للزيد ٥٦٧].

٤ ـ الرباط في سبيل الله، وحراسة ثغور المسلمين عبادة عُظْمَى:

يقول د/ فيض الله: «أفصحت قصة عمار بن ياسر المهاجري، وعباد بن بشر الأنصاري رضي الله عنهما، اللذين أقامهما سيدنا رسول الله ﷺ حارسين ثغرًا من ثغور المسلمين، عن مبلغ امتثال السلف الصالح في خير القرون أمر الرسول القائد ﷺ، ومبلغ تصورهم الجهاد في يقينهم.

فليس الجهاد في الإسلام طاقه مادية، وقوة عسكرية، وتحركًا ماديًّا، ابتغاء النصر كيفما كان الأمر، كلا، إنه في الإسلام عبادة، يتطوع بها المسلم بدمه وماله، لنصرة دين الله، وترسيخ شرعه ونظامه في هذه الدنيا.

ليس القصد في الجهاد الانتصار ولا الغلبة والسيطرة على مناطق النفوذ، ولا بسط السلطان على أكبر مساحات من الخامات، كلا! القصد فيه مرضاة الله بنشر دينه وتطبيق شرعه: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**». [البخاري في العلم (١٢٣)، وفي الجهاد والسير (٢٨١٠)، وفي فرض الخمس (٣١٢٦)،

وفي التوحيد (٧٤٥٨)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٤)، وأبو داود في الجهاد (٢٥١٧)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٦)، والنسائي في الجهاد (٣١٣٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٣)، ومسند أحمد عن أبي موسى الأشعري ﷺ (١٨٩٩٩، ١٩٠٩٩، ١٩١٣٤، ١٩٢٤٠، ١٩٢٤١)].

ولما تمثل عَبَّادٌ ﷺ هذه الحقيقة، وعرف أنه وهو على الثغر، في مقام العبادة، شفع عبادته هذه بمناجاة الحق سبحانه، فقام يصلي، قام يتبتل، ويقرأ ويدعو، ويستغرق في عبوديته لرب العالمين... فلم يشعر وهو ممتزج ذائب في عبوديته، بوقع السهام في جسمه، الواحد تلو الآخر، وراح ينتزعها بغير مبالاة، كما لو كانت ذبابًا يُطَيِّرُه، أو غبارًا ينفضه.

ومن ثم لم تكن به حاجة إلى قطع الصلاة، أو قطع السورة التي كان يتلوها فيها، ولولا خوفه ـ أخيرًا ـ من فراغ الثغر إن سقط، واتساع الخطر على المسلمين المجاهدين الذين تولى حراستهم لينامو، لما قطع صلاته؛ ليسلِّم أخاه أمانة حفظ الثغر.

فاستمع إلى قوله: «**وأيم الله لولا أن أضيِّع ثغرًا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها**»، يعني صلاته.

أرأيت كيف تُنسِي حلاوة مناجاة الله تعالى، الآلام، وكيف تتكسر السهام في موقف امتثال أمر الله، وأمر رسول الله؟

كم كان عباد بن بشر ﷺ متلذذًا بموقف الحراسة، وشرف الرباط في الثغر، امتثالًا للأمر! أتشك في أنه كان يحفظ جيدًا قول النبي ﷺ: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ الله، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله**».

[الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٣٩)، وقَالَ أَبُو عِيسَى: وَفِي البَاب عَنْ عُثْمَانَ وَأَبِي رَيْحَانَةَ، وَحَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ شُعَيْبِ بْنِ رُزَيْقٍ. وصححه الشيخ الألباني].

فلا تشك إذن في أنه كان يحفظ جيدًا قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزُّمَر].

حينما يرقى المسلمون في جهادهم إلى هذا المستوى، يصبحون جديرين بنصر الله، وإنجاز وعده.

والقوة المادية المجردة، لا غناء للإنسانية فيها، إن لم يصنعها الإيمان، ويفجرها اليقين، وتبثها إشعاعات من روح الله.

اللهم حبب إلينا الإيمان، وعرفنا بشرف الجهاد، وبصرنا به ابتغاء مرضاتك، وأحينا سعداء، وأمتنا شهداء، في سبيلك، يا رب العالمين! [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٨١-١٨٣].

ويقول د/ الغضبان: «هكذا يفقه الجيل المتوازن كيف يزجي فراغه ويملأ وقته، أما حراس جيلنا النكد فيأخذ السيجارة ليشعلها من عقب السيجارة الثانية، وينفث الدخان والسم، أو يجلسون معًا على ورق اللعب والنرد يقامرون بهالهم وأمتهم ومحرسهم، لكن جيل النبوة ينتظر لحظة يخلو فيها لنفسه، حتى يخلو بربه فهو في شوق لمناجاته.

إن عَبَّادًا ﷺ في عالم من الأُنس بالله يجعله ينسى أن سهمًا قد غرز في جلده وأسال دمه، وهو يريد أن ينزع هذا الشاغل الذي يشغله عن ربه، ويتابع حديثه بين يدي ربه ﷻ، وجاء السهم الثاني الذي يناسبه أن تند منه صرخة توقظ الجيش كله، وأن يُحمل من أقرانه ليُعالج مرضه، لكن صاحبنا في عالمه الرباني الحالم جاء ما يشجي حلمه، فرمى بسهمه الثاني وانتزعه والدم ينسكب غزيرًا منه، ودمعه ينسكب غزيرًا خشية لله ﷻ يتابع جلسته مع ربه وكتاب ربه ﷻ، وجاء السهم الثالث الذي قد يكون به أجله، ورمى بسهمه الثالث، لكن صحا وذكر أنه حارس على ثَغْرٍ من ثُغور المسلمين، وقد يُؤتى الثغر من قِبَله، ونزلت دمعات الحسرة والشجى في حلقه أن حيل بينه وبين متابعة السورة التي يناجي بها ربه، فقطعها وركع وسجد وأيقظ صاحبه عمار بن ياسر قائلًا له: اجلس فقد أتيت ـ أو قد أثبتُّ ـ أي أصابتني الجراحة، هذا القلب العامر بالإيمان كالجبال الرواسي، العامر بالشجاعة كالصخور الصم، لم يرتعب، ولم يرتعد، ولم يرتجف، بل كل ما حركه هو خوفه على ثغر المسلمين، أما جسده، وأما دمه، وأما روحه، فما له ولهم إن كان يناجي ربه.

ومهما حاولنا أن نصف تلك الحالة، فنحن أعجز عن وصفها، أمام وصفه العظيم الذي يقطع كل قول ويغني عن كل تعليق.

ونحن نقطع السور أحيانًا لطرق خفيف على الباب، أو لطارق يخطر على بالنا فننسى كل ما نقرأ، وصاحبنا حارس الثغر ﷺ تطرقه السهام الثلاثة، فتنغرز في جسده، وتخرج الدم الفوار منه فلا يستجيب لهذا الطارق، ولا يطرق قلبه لحظة خوف خاطفة وهو أنيس بربه ومناجاة ربه.

وبقي أن نعرف أن عباد بن بشر ﷺ هو أحد الأبطال الخمسة الذين ذَبحوا كعب بن الأشرف في عقر داره، وأن نعلم أنه قائد حرس المسلمين في المعارك الضخام وقائد خيالتهم، وأن نعلم أنه واحد من الكُمَّل الثلاثة من الأوس والذين قالت عائشة ﷺ فيهم: «ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد يعتد عليهم فضلًا، كلهم من بني عبد الأشهل: سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وعباد بن بشر».

[سير أعلام النبلاء للذهبي ١/ ٣٣٨، وقال المحقق فيه: «أخرجه الحاكم ٣/ ٢٢٩، ووافقه الذهبي، وذكره الحافظ في الإصابة ١/ ٧٦ عن ابن إسحاق، وقد صرح بالتحديث»]. [التربية القيادية للغضبان ٣/ ٣٠٥-٣٠٦].

تقسيم الحراسة: يقول د/ أبو فارس: «يلاحظ القارئ الكريم أن الرجلين الذين قد أُنيطت بهما حراسة الجيش قد اقتسما الليل نصفين: نصفًا للراحة ونصفًا للحراسة، وهذا شيء جيد، إذ لابد من راحة جسم الجندي بعض الوقت، أما أن يسهر طول الليل فقد ينهكه السهر، ويغلبه النوم أثناء الحراسة، فتكون الغفلة من الحرس، وتكون الميلة من العدو.

لكن الذي نريد أن نقوله: كان الأولى بهذا الصحابي الجليل الذي انشغل بالصلاة عن الحراسة أن يحرس إخوانه ويؤجل قيامه، وفي اعتقادنا أن له أجرًا يفوق أجر صلاته، فأجر الجهاد في هذا الدين أجر القائم ليله الصائم نهاره، وكلنا يذكر حديث رسول الله ﷺ: «**عَيْنَانِ لا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهِ**»(١). [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٠-٣١].

مكان الحراسة مكان إستراتيجي: يقول د/ أبو فارس: «اختار النبي ﷺ فم الشعب مكان إقامة الحرس، وكان هذا الاختيار في غاية التوفيق؛ لأنه المكان الذي يتوقع أن يأتي العدو منه لمهاجمة المعسكر.

قد يهتم بعض القادة العسكريين بالحراسة إلا أنه قد لا يوفق في اختيار مكان الحراسة فيؤتى الجيش من مكان لم يُعِر القائد له انتباهًا واهتمامًا». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣١].

قرب مهجع الحراسة من الحارس: يقول د/ أبو فارس: «لقد كان مهجع الحرس قريبًا من الحارس، ومن ثم استطاع الحارس أن يوقظ أخاه النائم، ولو كان المهجع بعيدًا عن الحارس لما تمكن الحارس من إيقاظ أخيه، وبالتالي يحدث ما لا تحمد عقباه.

نعم إن مكان إقامة الحرس ينبغي أن يكون قريبًا من الحارس؛ لأن ذلك مهم جدًّا، إذ لو حزب شيء طارئ لا يستطيع الحارس بمفرده أن يدفعه أو يرده فينبغي عليه أن يوقظ الحرس أولًا ليهب للدفاع عنه وعن إخوانه، أما أن يكون الحارس في واد ومهجع الحراسة في واد آخر فهذا يجعل الاتصال صعبًا في الساعات الحرجة مما يلحق الضرر بالمسلمين». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٢].

٥ ـ الحرص على قيام الليل:

يقول د/ الزيد: «فالصحابيان عمار بن ياسر وعَبَّاد بن بشر رضي الله عنهما لما كلفهما الرسول ﷺ بالحراسة اقتسما الليل نصفين أحدهما يصلي النصف الأول والآخر يصلي النصف الثاني. وهذا دأب الصالحين رضي الله عنهم، وهو المحافظة على هذا الوِرد الليلي». [فقه السيرة للزيد ٥٦٨-٥٦٩].

---

(١) قال د/ أبو فارس: رواه الترمذي سنن الترمذي مع عارضه الأحوذي ٧/ ١٣٨، وجاء في مختصر شرح الجامع الصغير ٢/ ١٢، الحديث الصحيح هذا، ولسنا مع الدكتور الفاضل محمد سعيد رمضان البوطي في تحسين موقف هذا الصحابي الذي انشغل بصلاته عن حراسته، واعتباره هذا الفعل أمرًا طبيعيًّا، مستحسنًا، فهو يقول في كتابه فقه السيرة، ص ٢٧٤ ـ كان من الطبيعي جدًّا بالنسبة لذلك الأنصاري عباد بن بشر رضي الله عنه، أن يشغل شطر حراسته من الليل بركعات خاشعة يقف فيها بين يدي ربه جل جلاله، وقد انصرفت مشاعره كلها إلى مناجاته بآيات من كتابه الكريم.

ويقول د/ الحميدي: «في الخبر الأخير مثل واضح على قوة الصبر واحتمال الأذى في سبيل الله تعالى لدى الصحابة ﷺ، كما أنه يدل على عنايتهم بالصلاة، وأنها أغلى عندهم من أنفسهم وأموالهم، وهذه الصلاة التي عُمرت بالخشوع وكُلِّلَت بحضور القلب مع الله تعالى هي الصلاة المؤثرة، التي أنجبت أبطالًا عظماء كهؤلاء الصحابة الكرام، فعلى قدر ما يعطونه ربهم ﷻ في الليل من الخضوع والتذلل وتجريد القلب لعبادته يعطيهم بالنهار من القوة على مكابدة الأعداء ومواجهة الشدائد؛ ولذلك لا نجد في الأمر غرابة إذا وجدناهم ينامون قليلًا من الليل ويواجهون عدوهم مع انبلاج الفجر بعزام قوية وهمم عالية تفوق طاقة الكفار بأضعاف، مع أن أعداءهم قد أخذوا قسطًا أكبر بكثير من النوم والراحة، فهؤلاء الصحابة ﷺ كما جاء في وصفهم «**عُبَّاد في الليل فرسان في النهار**».

ونلاحظ في هذا الخبر أن عَبَّاد بن بشر ﷺ قد أغفل من حساب فكره النظر إلى مستقبل أولاده وأهله وأمواله فيما إذا أصيب واستشهد، وإنما كان يوازن النظر حينما رماه ذلك الرجل بين أمرين: أن يكمل السورة التي بدأها أو أن يقطعها ليوقظ أخاه عمارًا حتى لا يضيِّع المهمة الكبيرة التي أناطها به رسول الله ﷺ، وكلا الأمرين من أمور الآخرة، وبهذا نعلم أن الصحابة ﷺ لم يكونوا يحسبون للدنيا حسابًا في تفكيرهم، وإنما كان تفكيرهم منحصرًا في أعمال الآخرة.

ومما ينبغي الإشارة إليه أن عباد بن بشر الأشهلي الأنصاري ﷺ لم يُستشهد في ذلك اليوم فقد بريء من جراحه، وإنما استشهد في معركة اليمامة ﷺ». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٥٩-٦٠**].

٦ ـ الحرص على الخشوع في الصلاة:

يقول د/ الزيد: «فهذا الصحابي الجليل ﷺ يصلي النافلة ـ وليس الفريضة ـ فيصاب بسهم فلا يفزع ولا يخاف، بل ينزع السهم ويمضي في صلاته، ثم يُصاب بالسهم الثاني وينزف الدماء وينزعه ويمضي في صلاته، ثم يُصاب بالسهم الثالث فأتم صلاته ولم يقطعها، ثم أيقظ صاحبه لا خوفًا من الرامي ولكن خوفًا على ثغر المسلمين، أين نحن من هؤلاء السلف الصالح ﷺ؟ الذين تعلقوا بالصلاة وعرفوا قدرها ووعوا مكانتها، فكانوا يرتاحون بها لا منها، وكانت قلوبهم ـ وهم في كل مكان ـ معلقة بالمساجد وبها، ونحن ندخل المسجد ونؤدي الصلاة وقلوبنا لا تدخل المسجد بل معلقة بالأسواق وأمور الدنيا وصخبها نسأل الله الرحمة». [**فقه السيرة للزيد ٥٦٩**].

٧ ـ معرفة طبيعة الجهاد الإسلامي:

يقول د/ البوطي: «لابد من أن يقف المسلم وقفة متأملة طويلة، أمام خبر ذينك الصحابيين، وهما يقومان على الثغر الذي أمرهما رسول الله ﷺ بحراسته؛ ليعلم طبيعة الجهاد الإسلامي، وكيف كان يمارسه أصحاب رسول الله ﷺ.

ولم يكن الجهاد عملًا حركيًّا يقوم على أساس المقاومة المادية المجردة، ولم يتصور واحد من المسلمين هذه الصورة الشوهاء له ولا في لحظة واحدة.

إنما الجهاد ـ كما علمه الرسول ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم وفهمه الصحابة منه ـ عبادة كبرى يتعلق فيها كيان المسلم كلُّه بخالقه ﷻ خاشعًا مستغيثًا متبتلًا، وما ساعة يكون فيها المؤمن أقرب إلى ربه ﷻ من تلك الساعة التي يستدبر فيها الدنيا ويستقبل بوجهه شطر الموت والاستشهاد.

ولذلك كان من الطبيعي جدًّا بالنسبة لذلك الأنصاري «عباد بن بشر» رضي الله عنه أن يَشغل شطر حراسته من الليل بركعات خاشعة يقف فيها بين يدي ربه ﷻ، وقد انصرفت مشاعره كلها إلى مناجاته بآيات من كتابه الكريم.

وكان من الطبيعي جدًّا أن لا يبالي بذلك السهم الذي أسرع فانحط في جسده، ولا بالسهم الثاني الذي تبعه؛ لأن بشريته كلها إنما كانت في تلك الساعة مطوية ضمن مشاعره المنصرفة إلى ربه ﷻ، وقد غمرتها لذة المناجاة بين العبد وخالقه.

ولما ارتد شعوره إليه وأخذ يهتم بما قد أصابه، لم يكن ذلك لمزيد من الألم بدأ يشعر به، وإنما للمسؤولية المنوطة به مخافة أن يضيعها بضياع حياته واستمرار سكوته، فكان ذلك هو الذي اضطره إلى أن يلتفت فيوقظ صاحبه ليستلم منه أمانة الثغر الذي أنيط بهما حفظه. [**يقول د/ رزق الله: «لم يقطع عَبَّاد رضي الله عنه صلاته لألم يشعر به، وإنما قطعها استشعارًا بمسؤولية الحراسة التي كُلِّف بها، وهذا درس بليغ في مفهوم العبادة والجهاد عند سلفنا الصالح، ولا وجه للمقارنة بينه وبين ما عليه نحن الآن!!» السيرة النبوية لرزق الله ص ٤٢٨**].

وتأمل يا أخي المسلم في قوله رضي الله عنه: وأيم الله، لولا أن أضيع ثغرًا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه، لقَطَع نفْسي قبل أن أقطعها أو أنفذها (أي السورة).

تلك هي طبيعة الجهاد الذي تكفل الله لأربابه بالنصر والفوز، مهما كانت القوة المتألبة عليهم المتجمعة من حولهم، فقارن ـ ليتقطع منك الكبد حسرة وأسى ـ بين ذلك الجهاد و «الجهاد» الآخر الذي نفخر باسمه وشعاراته اليوم.

قارن؛ لتقف على مدى عدالة الله في الأرض، ولتعلم أن الله لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون، ثم ارفع يديك إلى السماء متوسلًا أن لا يهلكنا الله بما فعل المبطلون، واجتهد أن تسكب قطرات حارة من دمع عينيك فيهما، فلعل في ذل العبودية إذ نتسربل به صادقين أمام الله، ما يرد عنا نقمة حقت علينا بتقصيرنا وما جنيناه من سيء الأعمال على نفوسنا». [**فقه السيرة للبوطي ٢١٣ – ٢١٤**].

٨ ـ فقه حديث عَبَّاد وعمَّار رضي الله عنهما:

قال الإمام السهيلي: «وَفِي هَذَا الحَدِيثِ مِنْ الفِقْهِ صَلَاةُ المَجْرُوحِ وَجُرْحُهُ يَثْعَبُ دَمًا، كَمَا فَعَلَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه، وَقَدْ تَرْجَمَ بَعْضُ المُصَنِّفِينَ عَلَيْهِ لِوَضْعِ هَذَا الفِقْهِ، وَفِيهِ مُتَعَلَّقٌ لِمَنْ يَقُولُ: إنَّ غُسْلَ النَّجَاسَةِ، لَا يُعَدُّ فِي شُرُوطِ صِحَّةِ الصَّلَاةِ، وَفِيهِ مِنْ الفِقْهِ أَيْضًا تَعْظِيمُ حُرْمَةِ الصَّلَاةِ، وَأَنَّ لِلمُصَلِّي أَنْ يَتَمَادَى عَلَيْهَا، وَإِنْ جَرَّ إلَيْهِ ذَلِكَ القَتْلَ، وَتَفْوِيتُ النَّفْسِ، مَعَ أَنَّ التَّعَرُّضَ لِفَوَاتِ النَّفْسِ لَا يَحِلُّ إلَّا فِي حَالِ المُحَارَبَةِ، أَلَا تَرَى إلَى قَوْلِهِ: لَوْلَا أَنْ أُضَيِّعَ ثَغْرًا أَمَرَنِي رَسُولُ الله ﷺ بِحِفْظِهِ لَقَطَعَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَقْطَعَهَا أَوْ أُنْفِذَهَا، يَعْنِي: السُّورَةَ الَّتِي كَانَ يَقْرَؤُهَا». [الروض الأنف للسهيلي ٦/ ٢٥٧].

٩ ـ حسن التقاضي:

يقول د/ الزيد: «أيضًا من كريم أخلاقه ﷺ وحسن قضائه لجابر رضي الله عنه أنه عندما وصل إلى المدينة رد عليه جمله الذي اشتراه منه وأعطاه ثمنه وأرجح له في الثمن. اللهم صل وسلم وبارك على هذا النبي العظيم». [فقه السيرة للزيد ٥٧٠].

١٠ ـ من الفقه في حديث جابر رضي الله عنه:

١ ـ في الحديث جواز المساومة لمن يعرض سلعته للبيع.

٢ ـ وفيه أن القبض ليس شرطًا في صحة البيع.

٣ ـ وجواز التحدث بالعمل الصالح للإتيان بالقصة على وجهها لا على وجه تزكية النفس، وإرادة الفخر.

٤ ـ وفيه تفقد الإمام والكبير لأصحابه وسؤاله عما ينزل بهم، وإعانتهم بما تيسر من حال أو مال أو دعاء.

٥ ـ وفيه جواز الضرب للدابة للمسير، وإن كانت غير مكلفة، إذا لم تكن قادرة.

٦ ـ وفيه توقير التابع لرئيسه.

٧ ـ وفيه الوكالة في وفاء الدين، والشراء بالنسيئة.

٨ ـ وفيه جواز الزيادة على الثمن عند الأداء، والرجحان في الوزن لكن برضا المالك.

٩ ـ وفيه فضيلة لجابر رضي الله عنه حيث ترك حظ نفسه وامتثل أمر النبي ﷺ له ببيع جمله مع احتياجه إليه.

١٠ ـ وفيه معجزة ظاهرة للنبي ﷺ. [صحيح السيرة للعلي ٣٧٤].

١١ ـ مُسَاوَمَةُ جَابِرٍ رضي الله عنه فِي جَمَلِهِ وَمَا فِيهِ مِنْ الفِقْهِ:

قال الإمام السهيلي: «وَذَكَرَ مُسَاوَمَةَ النَّبِيِّ ﷺ لِجَابِرٍ رضي الله عنه فِي الجَمَلِ حَتَّى اشْتَرَاهُ مِنْهُ بِأُوقِيَّةٍ وَأَنَّهُ أَعْطَاهُ أَوَّلًا دِرْهَمًا، فَقَالَ: لَا، إذًا تَغْبُنُنِي يَا رَسُولَ الله.

فَإِنْ كَانَ أَعْطَاهُ الدِّرْهَمَ مَازِحًا، فَقَدْ كَانَ يَمْزَحُ، وَلا يَقُولُ إِلا حَقًّا، فَإِذَا كَانَ حَقًّا، فَفِيهِ مِنْ الفِقْهِ إِبَاحَةُ المُكَايَسَةِ الشَّدِيدَةِ فِي البَيْعِ، وَأَنْ يُعْطِيَ فِي السِّلعَةِ مَا لَا يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ ثَمَنًا لَهَا بِنَصِّ الحَدِيثِ.

وَفِي دَلِيلِهِ أَنَّ مَنْ اشْتَرَى سِلعَةً بِمَا لَا يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ لَهَا ثَمَنًا، وَهُوَ عَاقِلٌ بَصِيرٌ، وَلَمْ يَكُنْ فِي البَيْعِ تَدْلِيسٌ عَلَيْهِ، فَهُوَ بَيْعٌ مَاضٍ لَا رُجُوعَ فِيهِ.

وَرُوِيَ مِنْ وَجْهٍ صَحِيحٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لَهُ كُلَّمَا زَادَ لَهُ دِرْهَمًا: قَدْ أَخَذْتُهُ بِكَذَا وَاللهُ يَغْفِرُ لَك، فَكَأَنَّهُ ﷺ أَرَادَ بِإِعْطَائِهِ إِيَّاهُ دِرْهَمًا دِرْهَمًا أَنْ يُكْثِرَ اسْتِغْفَارَهُ لَهُ.

وَفِي جَمَلِ جَابِرٍ ﷺ هَذَا أُمُورٌ مِنْ الفِقْهِ سِوَى مَا ذَكَرْنَا، وَذَلِكَ أَنَّ طَائِفَةً مِنْ الفُقَهَاءِ احْتَجُّوا بِهِ فِي جَوَازِ بَيْعٍ وَشَرْطٍ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ شَرَطَ لَهُ ظَهْرَهُ إِلَى المَدِينَةِ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: لَا يَجُوزُ بَيْعٌ وَشَرْطٌ، وَإِنْ وَقَعَ فَالشَّرْطُ بَاطِلٌ وَالبَيْعُ بَاطِلٌ، وَاحْتَجُّوا بِحَدِيثِ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ شُعَيْبٍ عَنْ جَدِّ أَبِيهِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ شَرْطٍ وَبَيْعٍ، وَعَنْ بَيْعٍ وَسَلَفٍ.

وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ هَذَا الحَدِيثَ، فَقَالَ: عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ أَبِيهِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو.

وَهَذِهِ رِوَايَةٌ مُسْتَغْرَبَةٌ عِنْدَ أَهْلِ الحَدِيثِ جِدًّا؛ لِأَنَّ المَعْرُوفَ عِنْدَهُمْ أَنَّ شُعَيْبًا إِنَّمَا يَرْوِي عَنْ جَدِّهِ عَبْدِ اللهِ لَا عَنْ أَبِيهِ مُحَمَّدٍ؛ لِأَنَّ أَبَاهُ مُحَمَّدًا مَاتَ قَبْلَ جَدِّهِ عَبْدِ اللهِ، فَقِفْ عَلَى هَذِهِ التَّنْبِيهَةِ فِي هَذَا الحَدِيثِ فَقَلَّ مَنْ تَنَبَّهَ إِلَيْهَا.

وَقَالُوا: لا حُجَّةَ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ ﷺ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ الاِضْطِرَابِ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ قَالَ: أَفْقِرْنِي ظَهْرَهُ إِلَى المَدِينَةِ، وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ: اسْتَثْنَيْتُ ظَهْرَهُ إِلَى المَدِينَةِ، وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ: شَرَطَ لِي ظَهْرَهُ، وَقَالَ البُخَارِيُّ: الاِشْتِرَاطُ أَكْثَرُ وَأَصَحُّ، وَكَذَلِكَ اضْطَرَبُوا فِي الثَّمَنِ، فَقَالُوا: بِعْته مِنْهُ بِأُوقِيَّةٍ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بِأَرْبَعِ أَوَاقٍ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بِخَمْسِ أَوَاقٍ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بِخَمْسَةِ دَنَانِيرَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بِأَرْبَعَةِ دَنَانِيرَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ فِي مَعْنَى الأُوقِيَّةِ، وَكُلُّ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ قَدْ ذَكَرَهَا البُخَارِيُّ، وَقَالَ مُسْلِمٌ فِي بَعْضِ رِوَايَاتِهِ: دِينَارَيْنِ وَدِرْهَمَيْنِ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ بِإِبْطَالِ الشَّرْطِ، وَجَوَازِ البَيْعِ، وَاحْتَجُّوا بِحَدِيثِ بَرِيرَةَ حِينَ بَاعَهَا أَهْلُهَا مِنْ عَائِشَةَ، وَاشْتَرَطُوا الوَلَاءَ، فَأَجَازَ النَّبِيُّ ﷺ البَيْعَ وَأَبْطَلَ الشَّرْطَ، وَاسْتَعْمَلَ مَالِكٌ هَذِهِ الأَحَادِيثَ أَجْمَعَ، فَقَالَ: بِإِبْطَالِ البَيْعِ وَالشَّرْطِ عَلَى صُورَةٍ، وَبِجَوَازِهِمَا عَلَى صُورَةٍ أُخْرَى، وَبِإِبْطَالِ الشَّرْطِ وَجَوَازِ البَيْعِ عَلَى صُورَةٍ أَيْضًا، وَذَلِكَ بَيِّنٌ فِي المَسَائِلِ لِمَنْ تَدَبَّرَهَا، وَأَبْيَنُ مَا تُوجَدُ مُحْكَمَةَ الأُصُولِ مُسْتَمْرَةَ الجَنَا وَالفُصُولِ فِي كِتَابِ المُقَدِّمَاتِ لِابْنِ رُشْدٍ، فَلْيَنْظُرْهَا هُنَالِكَ مَنْ أَرَادَهَا». [الروض الأنف للسهيلي ٦/ ٢٤٦-٢٤٨].

المطلب الرابع
الدروس العسكرية

١ ـ استرداد هيبة الجيش الإسلامي:

يقول الشيخ أبو زهرة: «كان الاتجاه في هذه الغزوة إلى بني محارب، وبني ثعلبة من غطفان وخرج رسول الله ﷺ في أربعمائة مقاتل.

وذلك لما كان من عامر بن الطفيل، وقَتْل أكثر من سبعين من القراء من المؤمنين خديعة وغدرًا؛ مما يدل على الاستهانة بالرسول ﷺ وجيشه بعد غزوة أُحد التي ادُّعي فيها بغير الحق هزيمة المؤمنين، وإشاعة ذلك في الصحراء ليستردوا هيبتهم، ويحرضوا العرب على محمد ﷺ ومن معه من المؤمنين.

وكان لابد للنبي ﷺ من أن يعلن قوة الإيمان، وأن يقتص من الذين قتلوا الأبرار الأتقياء من أصحابه غدرًا وخيانة.

خرج إليهم رسول الله ﷺ في أربعمائة رجل كما ذكرنا، فوجد جمعًا عظيمًا من غطفان، فلما تراءى الجمعان تهيب كل صاحبه، ويقول ابن إسحاق: خاف الناس بعضهم بعضًا، ولم يكن قتال، فلم ينل محمد ﷺ منهم، ولم يقتص لأولئك الأبرار الذين قُتلوا خيانة وغدرًا.

ولكنهم إذا كانوا لم يقتصوا منهم لكثافة عددهم وكانوا عددًا كبيرًا وبُعد الشُّقَّة بين موضع القتال والمدينة، فإن النبي ﷺ قد أرهبهم، واسترد ما كان للجيش الإسلامي من هيبة، وذهبت صورة ما أنشأته قريش لنفسها.

وفوق ذلك، ارتاد البلاد العربية، وتعرف مداخلها، ثم أشار لقريش إلى أنه يرصدهم، كل مرصد، ويتتبع متاجرهم إن أراد، وما كان الدخول في معركة يشك في نتيجتها خيرًا من أن يصل إلى الأمور من غير حرب، وأما القصاص لأولئك الأبرياء الذين ذهبوا في غدر دنيء، وخفر للعهد لا يرضى عنه عربي، ولا يقبله من له مروءة، فإن أمر ذلك إلى الله، والمستقبل القريب، وإن ربك لبالمرصاد، وما كان النبي ﷺ لينتقم إذا استجابوا لله وآمنوا بما أنزل على الرسول». [**خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٧٦٢-٧٦٣**].

٢ ـ أهمية معرفة الأعداء:

يقول أ/ فتح الباب: «كان النبي ﷺ يُعلِّم أصحابه أن الطريق إلى النصر الأخير طويل وشاق، فلا ينبغي للمسلمين أن يغفلوا عن أعدائهم، فما كان هؤلاء ليغفلوا عنهم، وليكن شعارهم دائمًا «**اعرف عدوك**»، فإن الوقوف على أخبار العدو وعملائه من أهم أسباب النصر في المعارك سواء أكانت حربية أم سياسية أم اقتصادية أم نفسية.

وتحقيق هذا الشعار يُعد سلاحًا ماضيًا من أسلحة المقاومة لا سبيل إلى التخلي عنه أو الإقلال من شأنه بأي حال من الأحوال، وخاصة أن المسلمين كانوا يواجهون أعداء كثيرين ذوي بأس وقوة وغلظة، لا يتورعون عن استخدام أحط الوسائل وأبشعها في سبيل القضاء على الإسلام، يظاهرهم في ذلك أشياع من المشركين والمنافقين، ويمدونهم بالعون والتأييد، ويتجسسون على المسلمين للتعرف على مراكز قوتهم، فكان السبيل الأمثل لإحباط مخططات قريش والقبائل الموالية لها والضرب على أيدي مدبريها هو المعرفة الواعية بها، وقطع الطريق على نوايا ومحاولات التربص بالمسلمين، وانتهاز الفرصة للإيقاع بهم، اعتمادًا على عنصر التآمر والاحتيال والتكتم وما إلى ذلك من أساليب التمويه.

وهذه المعرفة هي السلاح المضاد الذي يكفل عدم التردي في حبائل المكر والغدر، أما وسيلة الحصول على هذه المعرفة فهي الحيلة والذكاء والقدرة على سبر أغوار النفس البشرية، على أن دراسة المكان المناسب والوقت المناسب للمعركة لا يقل أهمية عن دراسة أحوال العدو وقدراته ومواطن قوته وضعفه وما يضمره من نوايا ويضعه من أهداف ويسلكه من سبل، أما مواطن قوته فالسبيل إلى دحرها هو معرفتها أولًا ثم مقاومتها بكافة الطرق ثانيًا، وأما مواطن ضعفه فالطريق إلى الاستفادة منها هو معرفتها أيضًا ثم البحث عن أنسب الوسائل للإكثار منها إضعافًا للعدو وتوهينًا من عزيمته».

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١١٩-١٢٠].

٣ ـ أهمية سلاح الاستخبار:

يقول أ/ فتح الباب: «وكان الاستخبار هو وسيلة النبي ﷺ في معرفة اتجاهات العدو وتطلعاته وقدراته، فكان من الطبيعي أن يتخذ هذه الخطة بعد إجلائه يهود بني النضير في المدينة وانتصاره في بدر الصغرى أو الآخرة، وما أفاءه الله على المسلمين فيها من ربح في التجارة وكسر شوكة المنافقين وإحباط كيدهم، وعلم النبي ﷺ من رجال مخابراته أن جماعة من قبيلة غطفان بنجد هم بنو محارب وبنو ثعلبة قد أعدوا عدتهم لغزو المدينة، فاعتزم كعادته أن يباغتهم بالهجوم قبل أن يخرجوا إلى قتاله، وجهز جيشًا من أربعمائة من رجاله.

ونهض ﷺ حتى بلغ منازل بني ثعلبة بنجد وكانت على مسيرة يومين من المدينة في مكان يعرف بذات الرقاع وهو جبل فيه بقع حمرة وسواد وبياض قريب من النخيل بين السعد والشقرة، وفي رواية أخرى أن ذات الرقاع شجرة بهذا الاسم في ذلك الموقع، كما قيل: إنما سميت هذه الغزوة ذات الرقاع لأن أقدامهم رقت جلودها وقرحت من الحفاء فكانوا يلفون عليها الخرق، وقيل: بل لأنهم رقعوا راياتهم فيها». [القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١٢٠-١٢١].

٤ ـ أهمية الضربة الأولى في المعركة:

يقول د/ أبو فارس: «لقد تبين لنا من الحملات العسكرية أن النبي ﷺ كان يحرص على أن يوجه الضربة الأولى لخصمه وعدوه العسكري؛ لما للضربة الأولى من أثر على معنويات المقاتَلين من الأعداء وإرباكهم، وإفقادهم توازنهم، وفي النهاية انهيار المقاومة عندهم وجعلهم يولون مدبرين لا يلوون على شيء.

وهذا ما حدث فعلًا في غزوة ذات الرقاع، وغزوة دومة الجندل، وغزوة بني المصطلق، إذ كانت الضربة الأولى قد كسرت شوكتهم، وقضت على حركتهم الفاعلة المؤثرة، فولوا مدبرين أمام الجيش الإسلامي، تاركين نساءهم وأطفالهم وأموالهم غنيمة سائغة للمسلمين.

ولقد أثبتت الحروب العسكرية قديمًا وحديثًا أثر الضربة الأولى على معنويات العدو.

ومما يؤسف له حقًّا أن عدونا في حروبه الحديثة معنا يستخدم الضربة الأولى معنا لعلمه بأثرها، فيفقد جيوشنا التوازن، ومن ثم تكون الهزيمة والاندحار والانهيار.

ويوم أن استعملنا الضربة الأولى ـ صوريًّا ـ مرة واحدة كان لها من الأثر ما كان على معنويات العدو وانهياره، إلا أنه قد خطط ألا نستفيد من ثمرة هذه الضربة، لسياسة مرسومة للمعركة ومحددة بحدود لا تتجاوزها.

وعلى أي حال فقد كان الجندي المقاتل الذي لم يعرف حقيقة المعركة حينذاك يتمتع بمعنويات عالية أذهلت العالم، في حين أن خصمه قد انهارت معنوياته وولى هاربًا». [غزوة الأحزاب لأبي فارس٢٧-٢٨].

ويقول د/ أبو فارس أيضًا: «لقد كان الرسول ﷺ في هذه الحملات العسكرية يحرص على مباغتة عدوه، حيث يشل تفكيره، وقدرته على القتال؛ لأنه لم يتوقع من أي جانب يُؤتى، وفي أي وقت يُضرب.

والمباغتة هذه تسمى في الحروب الحديثة المفاجأة، (وهي تعني الظهور أمام العدو في وقت لا يُقَدِّره وبصورة لا يتوقعها، وبأسلوب يجهله... وهي بهذه الصورة تؤدي إلى ارتباك خطير في صفوف العدو فوق أنها تثير الرعب بين جنوده، فيفقدون اتزانهم، وتهتز أعصابهم، بصورة تجعلهم غير قادرين على المواجهة والقتال، وهنا تحل بهم الهزيمة.

والقائد الذكي الماهر هو الذي يجتهد في أن يضع خصمه في الموضع الذي يصبح فيه مسلوب الإرادة، مقيد التفكير لا حول له ولا قوة، ضعيفًا لا يملك القدرة على المقاومة والتحمل، ويكون همه الأول هو وقاية نفسه.

والمباغتة قد تكون عددية أي أن يواجه العدو بقوات كبيرة العدد لم تكن في حسبانه، وقد تكون في وقت لا يتوقعه العدو، وقد تكون في جبهة لا يُقَدِّر العدو أهميتها، فتكون هي مقبرته، وقد تكون باستخدام أسلحة جديدة يجهلها العدو.

وتتم المباغتة إذا تحققت لها سهولة الحركة وسريتها وسرعتها). [المدرسة العسكرية الإسلامية لمحمد فرج ص٤١٠]». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٢٨-٢٩].

ويقول د/ الحميدي: «في مبادرة النبي ﷺ إلى غزو قبيلة غطفان في مكان تجمعهم وعدم تأخير ذلك إلى أن يصلوا إلى المدينة، وقد سبق في سرية أبي سلمة ﷺ بيان محاولة قبيلة غطفان الوصول إلى المدينة لغزو أهلها ونهب ما يستطيعون من خيراتها.

وقد كان في خروج النبي ﷺ إليهم في مكان تجمعهم أقوى رادع لهم عن التفكير مرة أخرى في غزو المدينة». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٥٨].

٥ ـ أعظم ما يكون النصر بقذف الرعب في قلوب الأعداء:

يقول د/ فيض الله: «عرَّفتنا هذه الغزوة ـ كما عرفتنا غزوة بني النضير من قبلها ـ أن الله تعالى، مكَّن لنبيه في الأرض، وأخذ أعداءه بالفزع، فكانوا يولُّون مدبرين، طالبين النجاة، تاركين وراءهم ما خوَّلوه، من مال وثراء، وريع وعقار، وذراري وحيوان.

ذلك أنهم نصروا الله، وبذلوا آخر ما في طوقهم، من قوة ومن رصيد، لم يَسْتَبْقُوا لأنفسهم عزيزًا ولا غاليًا، إلا وقدموه في سبيل الله.

ألم تر أنهم خرجوا مشاة، يتناوبون الجمل الواحد وهم سُداس، حتى نقبت أقدامهم، وسقطت أظافرهم، ولفوا الخرق على أقدامهم، وهذا قصارى جهدهم، كل ذلك فعلوه ابتغاء وجه الله، ولنصرة دينه، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[الحج: ٤٠].

غير أن النصر هنا ما كان بقعقعة السلاح، ولا مبارزة الشجعان، بل كان بأن ألقى الله الذعر في قلوب المشركين، فاعتصموا بشُعُب الجبال، متلَمِّسين النجاة.

وصدق قول النبي ﷺ في الصحيح: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ**».

[البخاري في التيمم (٣٣٥)، وفي الصلاة (٤٣٨)، وفي الجهاد والسير (٢٩٧٧)، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٣٢)، وفي لفظ لأحمد: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، فَيُرْعَبُ مِنِّي العَدُوُّ عَنْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ» أحمد عن أبي ذر الغفاري ﷺ (٢٠٧٩٢)، وفي لفظ لمسلم: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ عَلَى العَدُوِّ» مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣)].

وإنما يكون هذا النصر للذين يتولاهم الله من أنبيائه وأوليائه، والذين وَثَّقوا صِلاتهم بالله، فلم يجدوا لهم سندًا إلا الله، ولا مُتَّجَهًا إلا إليه، ولا نصيرًا سواه؛ فيكتب الله لهم الغلبة والعزة، بإرهاب عدوهم، فإذا رُهِبَ لم يستطع أن يتخذ إلى مقاومتهم سبيلًا، وذلك أعظم ما يكون النصر والغلب، فمع الخوف تسقط الحيل، وتحبط الخطط، ويتجمد الفكر، وينقطع العمل المنظم المجدي».

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٧٤-١٧٥].

«كانت غزوة ذات الرقاع حافلةً بالمشاعر لا بالدماء، حافلةً بالمعجزات والكرامات، لم يكن فيها قتال، لكن ذلك المكان المسمى بـ(ذات الرقاع) كان ساحة للخوف والتوتر، أخاف الناس بعضهم بعضًا، ثم تفرقوا دون دماء، أخاف النبيُّ ﷺ أعداءه وكسب ثناء بعضهم، وحقَّق ﷺ بجيشه نصرًا معنويًّا له رصيده في النفوس». [السيرة النبوية للصوياني ٢/ ٣١٤-٣١٥].

٦ ـ حب الجنود للقيادة النبوية:

يقول أ/ فتح الباب: «وفي تهيئة المسلمين سبل الراحة للنبي ﷺ بتركهم له الأشجار الظليلة يأوي إليها لتقيه حر الهجير في الصحراء دلالة عميقة على الحب المتبادل بين الجماعة وقائدها، حب يسري فيهم سري الروح في البدن.

كذلك فإن هَبَّة أصحابه ومبادرتهم إلى التصدي للأعرابي المعتدي ومنعه أن يرتكب جريمته المنكرة، والتفافهم حول رسول الله ﷺ يمثل هذا الموقف قيمة من أعظم القيم الإنسانية والأخلاقية وهي الوحدة، وحدة القائد والجنود في الحرب والسلم على السواء، فالكل للواحد والواحد للكل».

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١٢٣].

ويقول د/ أبو فارس: «لقد كان صحابة رسول الله ﷺ جميعًا يحبونه ويؤثرونه على أنفسهم، فما ساروا في غزوة إلا قاتلوا دونه والتفوا حوله، وما وجدوا أمرًا يسر رسول الله ﷺ ويهيئ له الراحة إلا فعلوه، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على حبهم إياه وإيثاره على أنفسهم.

ففي غزوة ذات الرقاع يقول جابر بن عبد الله بن حرام رضي الله عنهما: «إن الصحابة إذا أتوا على شجرة ظليلة تركوها للنبي ﷺ». [المدرسة النبوية العسكرية لأبي فارس ٤٦، وغزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٢].

٧ ـ الحرص على توفير الراحة التامة للقائد:

يقول د/ أبو فارس: «ويمكننا أن نستفيد من هذا درسًا آخر غير درس الحب للقائد ﷺ وهذا الدرس هو الحرص على توفير الراحة التامة للقائد حتى يكون قادرًا على التخطيط والمتابعة، ولابد للقيادة الناجحة من صفاء الذهن وسكون النفس واطمئنان القلب، وجسم مرتاح قادر على الحركة، يجب المحافظة على حياة القائد ما أمكن؛ لأن خسارة القائد في المعركة أفدح بكثير من أي خسارة أخرى، فقد يُعَوِّض فقدان جندي بجندي غيره بسهولة، وتعويض القائد في الساعات الحرجة بغيره أمر في غاية الصعوبة، إذ ليس من السهل إيجاد البديل الذي يستوعب خطة القتال في المعركة، وتحركات الجيش في جبهات القتال وأوضاع المقاتلين وأحوالهم وحاجاتهم وما يلبي هذه الحاجات.

وفي الوقت ذاته فإن فقدان القائد في هذه الظروف القتالية يؤثر تأثيرًا قويًّا وسلبيًّا على الروح المعنوية القتالية عند الجنود». [المدرسة النبوية العسكرية لأبي فارس ٤٦، وغزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٢-٣٣].

٨ ـ اهتمام القائد بأمن الجنود:

يقول د/ أبو فارس: «ظهر ذلك حينما قرر الرسول ﷺ أن ينام الجيش بواد قريب من المدينة بعد عودته من غزوة ذات الرقاع، إذ اختار رجلين من خيار الصحابة لحراسة الجيش ليلًا.

إن كل قائد حَذِر ـ وفي مقدمتهم الرسول القائد ﷺ ـ يدرك أن الأعداء يراقبون تحركاته وسكناته، ويغتنمون فرصة يغفل فيها المسلمون فيميلون عليهم ميلة واحدة، هذا وغيره لم يغب عن ذهن رسول الله ﷺ لحظة واحدة، فأَخَذ بالأسباب». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٠].

ويقول د/ الرشيد: «من واجبات القائد: أن يتخذ حرسًا على العسكر حتى لا ينتهز العدو فرصة فيبغتهم على حين غفلة منهم، وقد وردت أحاديث من السنة تدل على مشروعية هذا الواجب، وسوف أذكر حديثين منها في هذا المقام:

الحديث الأول: عَنْ مُصْعَبِ بْنِ ثَابِتٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: قَالَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ﷺ وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَى مِنْبَرِهِ: إِنِّي مُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا كَانَ يَمْنَعُنِي أَنْ أُحَدِّثَكُمْ إِلَّا الضِّنُّ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**حَرَسُ لَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ يُقَامُ لَيْلُهَا وَيُصَامُ نَهَارُهَا**». [مسند أحمد ١/ ٤٨٨، ٥٠٩ عن عثمان بن عفان ﷺ (٤٣٣، ٤٦٣)، وقال الشيخ الأرناؤوط: حسن، وهذا إسناد ضعيف. وينظر من المسند رقم ٤٤٢، ٤٧٠، ٥٥٨ ففيه روايات حسنة بنفس المعنى].

ففي هذا الحديث: بيَّن فضل الحراسة في سبيل الله ﷻ، وهذا دليل على مشروعيتها.

الحديث الثاني: عَنْ سَهْلِ ابْنِ الحَنْظَلِيَّةِ ﷺ أَنَّهُمْ سَارُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ، فَأَطْنَبُوا (أطنب الرجل في عدوه إذا مضى فيه باجتهاد ومبالغة) السَّيْرَ حَتَّى كَانَتْ عَشِيَّةً، فَحَضَرْتُ الصَّلاَةَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَارِسٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي انْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ حَتَّى طَلَعْتُ جَبَلَ كَذَا وَكَذَا، فَإِذَا أَنَا بِهَوَازِنَ عَلَى بَكْرَةِ آبَائِهِمْ بِظُعُنِهِمْ وَنَعَمِهِمْ وَشَائِهِمُ اجْتَمَعُوا إِلَى حُنَيْنٍ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: «**تِلكَ غَنِيمَةُ الْمُسْلِمِينَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ**»، ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ يَحْرُسُنَا اللَّيْلَةَ؟**»، قَالَ أَنَسُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ الغَنَوِيُّ رضي الله عنهما: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**فَارْكَبْ**»، فَرَكِبَ فَرَسًا لَهُ، فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اسْتَقْبِلْ هَذَا الشِّعْبَ حَتَّى تَكُونَ فِي أَعْلاَهُ وَلاَ نُغَرَّنَّ مِنْ قِبَلِكَ اللَّيْلَةَ ...**».

[أبو داود في الجهاد (٢٥٠١)، وصححه الشيخ الألباني، والحاكم في المستدرك كتاب الجهاد (٢٤٣٣)، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ١٤٩ كتاب السير (١٨٩٠٩)].

فقد طلب النبي ﷺ من أحد الصحابة أن يتولى حراستهم في تلك الغزوة، وهذا دليل فعلي على مشروعية الحراسة في سبيل الله.

وقد ذكر الماوردي ﷺ أن من واجبات أمير الجيش نحو جنده: (حراستهم من غِرَّة يظفر بها العدو منهم، وذلك بأن يتتبع المكامن ويحوط سوادهم بحرس يأمنون على نفوسهم ورجالهم ليسكنوا في وقت الدعة، ويأمنوا ما وراءهم في وقت المحاربة) [الأحكام السلطانية للماوردي، والأحكام السلطانية لأبي يعلى، وينظر: مختصر في سياسة الحروب للهرثمي ص ٣٢]». [القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٥٦-٥٧].

٩ ـ تحقيق الحملة أغراضها:

يقول أ/ باشميل: «وهكذا انصرف النبي ﷺ من غزوة ذات الرقاع دون أن يلقى حربًا إلا أن حملته العسكرية هذه قد حققت أغراضها كاملة، وذلك أنه ﷺ بحركته العسكرية السريعة هذه قد تمكن من تشتيت الحشد الذي قامت به غطفان لغزو المدينة، فأرهب تلك القبائل وألقى عليها درسًا بأن المسلمين ليسوا قادرين (فقط) على سحق من تحدثه نفسه بالاقتراب من المدينة، بل قادرين على نقل المعركة إلى أرض العدو نفسه وضربه في عقر داره.

وهذا هو الذي جعل قبائل نجد المشركة تتبخر من رؤوس زعمائها جميعًا فكرة غزو المسلمين في عقر دارهم فلم يجرؤوا على غزو المسلمين إلا عندما طلب منهم اليهود المشاركة (مع قريش) في غزوة الأحزاب.

وهكذا انصرف النبي ﷺ بجيشه من ديار غطفان وقد سجل نصرًا ساحقًا كان له أبلغ الأثر لا في نفوس قبائل غطفان وحدها بل في نفوس جميع القبائل النجدية التي كانت تطمع في المسلمين وتحدث نفسها بالإغارة عليهم متوهمة ضعفهم بعد الانتكاسة التي أصابتهم في معركة أُحُد.

والنصر الساحق هذا يتجسد في أن النبي ﷺ استطاع بحركته السريعة هذه إلى ديار نجد أن يرهب أعظم القبائل النجدية (غطفان) ويشتت جموعها العظيمة تلك التي ما كانت لتنفض حتى تغير على المدينة لولا أن الله تعالى ألهم الرسول القائد ﷺ المحنك فقام بتلك الحركة السريعة وباغت (كما هي عادته في تأديب الأعراب) تلك الجموع الغطفانية وهي لما تزل في ديارها». [غزوة الأحزاب لباشميل ٦٨-٦٩].

المطلب الخامس

الدروس الدعوية

١ ـ تحمل الصعاب في سبيل تبليغ رسالة الإسلام:

يقول د/ البوطي: «فيما رواه الشيخان عن أبي موسى الأشعري ﷺ في بيان سبب تسمية هذه الغزوة بهذا الاسم صورة واضحة عن مدى ما كان يتحمله أصحاب رسول الله ﷺ في تبليغ رسالة ربهم و الجهاد في سبيله، لقد أوضحت الصورة أنهم كانوا فقراء لا يجدون حتى الظهر الذي يمتطونه لجهادهم وغزواتهم، فالستة أو السبعة الذين كانوا يتعاقبون ركوب البعير الواحد في قطع مسافة بعيدة شاقة، ولكن الفقر مع ذلك لم يستطع أن يعيقهم عن أداء رسالتهم: رسالة الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله، فقد تحملوا في سبيل ذلك كل النتائج وكل ألوان المحن، نقبت أقدامهم من طول سيرها على الوعثاء والقتاد، وتساقطت أظفارهم مما اصطدمت بالحجارة والصخور، وتعرَّت أقدامهم فلم يجدوا إلا الخِرَق يلفونها عليها الواحدة فوق الأخرى!

ومع ذلك فما ضعفوا وما استكانوا، واستهانوا بكل ذلك في جنب عظم المسؤولية الإلهية الملقاة على أعناقهم منذ أن أصبحوا مسلمين، فقد كانوا يتمثلون قول الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾[التوبة].

وهو نص البيعة التي وقعوا عليها وأخذوا أنفسهم بها.

ثم إنك ترى أن أبا موسى الأشعري ﷺ كره من نفسه أنه أباح بهذا الخبر، بعد أن أفلت من فمه، عندما سألوه عن سبب تسمية هذه الغزوة بذات الرقاع، وإنما كره ذلك وندم عليه بسبب أنه أفشا شيئًا من عمله الذي احتسب أجره عند الله ﷻ.

وهذا يدل ـ كما يقول الإمام النووي ـ على أنه يستحب للمسلم أن يُخفي أعماله الصالحة وما قد يكابد من المشاق في سبيل الله وفى طاعته، وأن لا يتعمد إظهار شيء من ذلك إلا لمصلحة، مثل بيان حكم ذلك الشيء و التنبيه على الاقتداء به ونحو ذلك، وعلى مثل هذا يُحمل ما وجد للسلف من الإخبار ببعض أعمالهم». [فقه السيرة للبوطي ٢١١].

ويقول د/ أبو فارس: «تأمل معي قول أبي موسى الأشعري ﷺ في غزوة ذات الرقاع: «خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزْوَةٍ، وَنَحْنُ سِتَّةُ نَفَرٍ بَيْنَنَا بَعِيرٌ نَعْتَقِبُهُ، فَنَقِبَتْ أَقْدَامُنَا، وَنَقِبَتْ قَدَمَايَ، وَسَقَطَتْ أَظْفَارِي، وَكُنَّا نَلُفُّ عَلَى أَرْجُلِنَا الخِرَقَ».

وهكذا ينبغي أن يدرك الدعاة أن الطريق صعب ومفروش بالأشواك وفيه عقبات كأداء، وآلام وأحزان، وهو الطريق الوحيد الذي يؤدي بصاحبه إلى الجنة، قال رسول الله ﷺ: «**حُفَّتْ الجَنَّة بِالمَكَارِهِ، وَحُفَّتْ النَّار بِالشَّهَوَاتِ**» [رواه الإمام مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي والدارمي وأحمد ـ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ١/ ٤٧٩]. [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٣].

٢ ـ لا شيء يثني عن الجهاد والدعوة إلى الله:

يقول د/ فيض الله: «قد ذهبنا في سبب تسمية هذه الغزوة بذات الرقاع، إلى ما ذهب إليه أهل الحديث وكثير من كتب السيرة النبوية، من أن الصحابة في هذه الغزوة مسَّهم شيء كثير من الضنك، وتعرضوا لألوان من الشدة، حتى نقبت أقدامهم، وسقطت أظافرهم، فأهووا على أرجلهم يلفونها بالخرق، يبقون عليها من وخز الأشواك، وقسوة الحجارة، وحر الرمال، فما كان لكل ستة منهم سوى بعير واحد، يتعاقبون ركوبه.

هكذا خرجوا للجهاد في سبيل الله، راضين ومصممين، لا يَشْكُون من فاقة، ولا يخشون من الحر، ولا من عناد الطبيعة، ولا من ضعف وسائلهم في مقاومتها، ولا يحسبون حسابًا لشيء حتى الموت، الذي استقلوه في ذات الله، وفيما عند الله، فباعوا أنفسهم، واشتراها الله منهم.

وحينما تقوى الروح المعنوية، تفتر جميع القوى، ويتهاوى كل شيء دونها: قوي إيمانهم، ورسخ يقينهم، واتصلوا بأعظم قوة في الوجود، قوة رب العالمين، فتضاءل الوجود أمامهم، فخَضُدَت الأشواك، وتكسرت الحجارة، وانطفأ لهيب الرمال، وتغلب الصحابة على هذه الظواهر المادية الطبيعية بأيسر الأسباب، فألقوا على أقدامهم الخرق، ولفوها بها.

يا الله! ما أعظم المقصد، وما أشرف الغاية، وما أعلى تلك النفوس، التي اكتسحت بالشدائد المتجمعة، وغالبت قوى الطبيعة، لتكفكف قوى الشر والكفر والعدوان، وتمهد لرسالة الله، وتنشر الحق، وتقيم العدل، وتضع منهاج الله في هذه الأرض.

في سبيل هذه الغاية العليا، تهون الصعاب، وتزول الشدائد، وتكتسح العقبات، وكذلك الإيمان العميق، يسخر كل شيء لخدمته، ويتلاشى كل شيء دونه». [صور وعبر لفيض الله ١٧٥-١٧٦].